محمد العبدة

دروب النهضة

أحاديث في الثقافة وشؤون الأمة

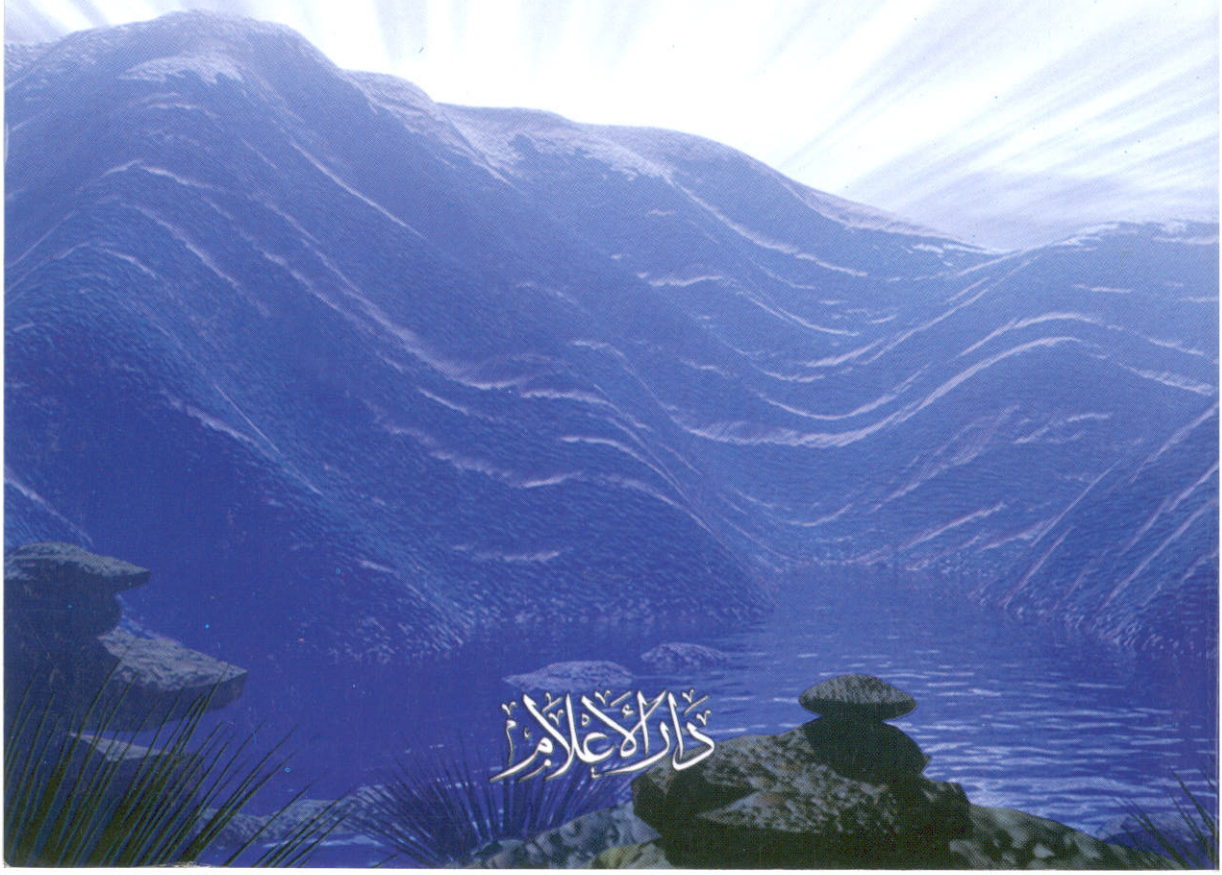

دار الأعلام

محمد العبدة

دروب النهضة

(أحاديث في الثقافة وشؤون الأمة)

دار الأعلام

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

الطَّبعَةُ الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

الأردن - عمّان - العبدلي - مركز جوهرة القدس - الطابق ٢ مكتب ٦٠٥
هاتف ٤٦٥٧٤٦٨ - ٠٦ فاكس ٤٦٥٧٤٦٩ - ٠٦ خلوي ٥٦٥٢٨٠٤ - ٧٩ - ٠٠٩٦٢
ص.ب ٩٢٧٥٦٣ عمّان ١١١٩٠ الأردن
E-MAIL : AL_AALAM@YAHOO.COM

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدى وشفاء للمتقين، ونوراً يهدي إلى الرشد من أراده من السائرين. هذا القرآن الذي يحي موات القلوب، ويحي الأمم من وهدات الجهل والبعد عن الطريق المستقيم، وقد أوضح للمسلمين طريق النجاة والتمكين. وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه، وبعد:

فإن مصطلح النهضة والحديث عن النهوض كان من أكثر الكلمات شيوعاً في بداية القرن الماضي، حين راح الغيورون من المسلمين يتلمسون طريق إحياء الأمة بعد ضعفها وتخلفها، ودُبِّجت المقالات وأُلِّفت الكتب، وتحققت أمور ولم يتحقق الكثير. فمشروع النهضة مشروع كبير يبدأ بالإنسان: قلبه وعقيدته وعلمه... وينتهي بالإنسان: مشاكل التنمية والتعليم والصحة، والاستقلال وتحرير الأرض، مشاكل الأمن النفسي والاقتصادي...

إن دروب النهضة كثيرة، ومنها تحرير عقل المسلم من إسار الوهم والأغلال، وتحريره من السطحية في معرفة الأعداء والأصدقاء، وما يدور

حوله. كانت الأمة تملك الاستعداد والقابلية للترقي والنهوض، وكانت البدايات موجودة قبل مجيء نابليون وحملته على مصر، لا كما يزعم مزوِّرو التاريخ والحقائق أن بداية النهضة كانت من حملة نابليون، لكن الأمور سارت بعدئذ في طريق آخر: طريق الخطب والكلام والدجل السياسي والشعارات الفارغة، وكان لتدخل الغرب دور كبير أيضاً؛ إذ حاول وأد كل عمل إصلاحي جاد، بل كل عمل وطني مخلص، فنجح في بعضها وأخفق في البعض الآخر، وهذا لا يجعلنا نيأس؛ فالخير في هذه الأمة باق وهو كثير.

تحدثت في بعض هذه المقالات عن الواقعية السياسية عند إمام الحرمين الجويني، وعند أعلام النهضة الحديثة من أمثال عبد الحميد بن باديس، وأبي الحسن الندوي؛ فالإمام الجويني في كتابه العظيم: (الغياثي) يقبل بالحد الأدنى من الشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يحكم المسلمين ولا يقبل ما دون ذلك.

وسنجد ابن باديس – وفي بداية الطريق – يقبل بالحد الأدنى الذي يستطيع المسلمون الحصول عليه من حقوق تجاه (فرنسا) الدولة المتسلطة على الجزائر. وكذلك نجد أبا الحسن الندوي في تعامله مع حكومة الهند التي تحكم أقلية مسلمة.

هناك دائماً موضوعات قديمة جديدة، نستلهم فيها تراثنا ونبني عليه؛ لأنه مستلهم من نصوص الوحيين؛ فعندما يتحدث الجويني عن مشكلة

الفقر ورأي الإسلام فيها فهو يتحدث عن مشكلة موجودة في كل عصر. وعندما يتحدث عن الذين يظنون أن الشرع ليس عنده حل لكل مشكلة طارئة، فإنما يتحدث عن الواقع الموجود اليوم؛ سواء قالها من قالها عن جهل بتفاصيل الشريعة أم عن سوء نية.

وتحدثت أيضاً عن مشكلة عسكرة الدولة وهي قديمة جديدة تشغل بال المسلم حاضراً ومستقبلاً؛ فمن المصائب أن يتحكم في شؤون الأمة عقلية عسكرية، والأصل في الجيوش أن تحمي البلاد من العدو الخارجي، لا أن تنقلب على الأمة، وتنفق طاقات الأمة وأموالها على الانقلابات والانقلابات المضادة.

وفي موضوع (السلام العالمي) الذي يدغدغ بعض العواطف تحدثت عن سنة كونية من سنن الله تعالى في البشر، وهي سنة التدافع والصراع، وأنها سنة مستمرة ما دام الخير والشر وتدافع الحق والباطل، وذلك حتى لا تفسد الأرض ويستولي عليها الأشرار. إن فكرة السلام العالمي فكرة خيالية لا تصدر إلا عن إنسان لم يفهم ويستوعب ما ذكره القرآن من غاية الخلق والابتلاء، وسنة التدافع، ولا تصدر إلا عن صاحب عقل مريض بأفكار تلوكها الألسنة من الشرق أو الغرب، فيظن المسكين أنها صحيحة؛ لأنها أتت من هناك.

ومن موضوعات هذا الكتاب: السؤال المحير: لماذا يمارس العرب السياسة بهذه الطريقة التي تجعلهم هم الخاسرين دوماً؟ لماذا يُخدعون

مرات ومرات، ثم يعودون لما نُهوا عنه؟ وقد أوضحت أن من أسباب ذلك بُعدهم عن الاستفادة من كتاب الله الذي أوضح بشكل جلي لا لبس فيه من هم أعداء الأمة وكيف يُعامَلون.

هذه بعض موضوعات الكتاب، وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن تكون محطات مضيئة تفتح بعض الآفاق للمستقبل، وندعو الله أن يخرج هذه الأمة مما هي فيه، وأن يوفق الأجيال الجديدة لتقوم بالمهمة أفضل قيام. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

١ شوال ١٤٢٣هـ.

الموافق ٥ / ١٢ / ٢٠٠٢م

جذور النهضة في العصر الحديث

مقدمة:

إن أي تقدم عمراني في، أو أي حديث عن النهضة لا بد أن يبدأ بالإنسان، فهو محور التغيير والجزء الأساسي فيه، وأولى الخطوات لتحقيق هذا الغرض هي: تحرير الإنسان من أسر الأوهام والخرافات، ومن أسر الأغلال التي تقيده وتصده عن التفكير السليم. قال تعالى في الحديث عن ملكة سبأ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٣]. أي صدها عن حصول العلم النافع عبادتها للشمس، فكانت بذلك الاعتقاد منصرفة عن الكمال العلمي والرشد الفكري[١]». فلا بد أن تتاح الفرصة للإنسان كي يعرف الحقائق ويعمل بها، وهذه هي دعوة الأنبياء: أن يكون الناس عبيداً لله وليس لأي شيء آخر، وهذا هو ديدن الإصلاح الإسلامي في كل زمان.

عصر النهضة:

في تاريخ المسلمين الحديث كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦) هـ (١٧٠٣ - ١٧٩١م)[٢] تنطلق من

---

(١) الشيخ الطاهر بن عاشور/ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام/ ٩.

(٢) ولد ونشأ في بلدة العيينة في إقليم نجد، أقام مدة في البصرة والمدينة، واستقر في الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى.

قلب الجزيرة العربية لتلبي هذا المطلب، وهو الرجوع إلى صفاء الإسلام، والأخذ به على أوله وأصله والبعد عن البدع والشرك التي تشل تفكير الإنسان وتجعله خاضعاً لبشر مثله، بل خاضعاً للأشياء مثل الأحجار والأشجار. فالتوحيد الذي دعا إليه الشيخ هو أساس الإسلام وعليه قام، وهذا التوحيد محرر للإنسان من سلطة الإنسان، وهو توحيد ذو مضمون نفسي اجتماعي عميق؛ فالعقلية الإسلامية التي تستقي من النبع الأول لا تسلم بالصواب المطلق لأي أحد مهما كان غير الأنبياء، وهذه عقلية لها آثار إيجابية في بناء شخصية الفرد، وإن سبب ضعف المسلمين وسقوط نفسيتهم ليس له إلا سبب واحد هو ضعف العقيدة.

إن دعوة الشيخ تعتبر نقطة مضيئة في تاريخ العالم الإسلامي خلال فترة الركود والجمود «بل إن كل الثورات الإسلامية في القرنين التاسع عشر والعشرين ضد الغزو الأوروبي ستحمل في طياتها بذرة وهابية[1]» حسب تعبير جلال كشك.

لم تنحصر هذه الدعوة في نجد أو الجزيرة العربية، بل تعدى تأثيرها إلى مناطق بعيدة في العالم الإسلامي، تأثر بها في المغرب الأقصى السلطان محمد بن عبد الله سلطان مراكش (١٧٥٧ - ١٧٩٠م) كما تأثر بها الداعية المجاهد أحمد بن عرفان الشهيد الذي قاد حركة كبيرة لتأسيس دولة في شمال غربي الهند.

---

(١) محمد جلال كشك: السعوديون والحل الإسلامي/ ١٠٥.

وفي اليمن قام الإمام محمد بن علي الشوكاني[1] (١١٧٣ - ١٢٥٠) هـ (١٧٦٠ - ١٨٣٤)م ودعا إلى ترك التقليد وهاجمه هجوماً عنيفاً، كما هاجم الفساد الإداري المتفشي في عصره، وهو فقيه مجتهد، ألف كتباً كثيرة، ودعا إلى الرجوع للعقيدة الصافية، ومن أشهر كتبه: (نيل الأوطار) في الفقه و (إرشاد الفحول) في أصول الفقه، و (فتح القدير) في التفسير. ومن العلماء الذين ينسبون إلى اليمن ولكنه عراقي الأصل هندي المولد العلامة مرتضى الزبيدي (١١٤٥ - ١٢٠٥هـ) (١٧٣٢ - ١٧٩١م) الذي سكن (زبيد) ونسب إليها، ولكنه استقر في مصر منذ عام ١١٦٧هـ وهو الذي أحيا طريقة المحدثين وبعث التراث اللغوي وعلوم العربية.

وظهر في العراق الآلوسيان: الآلوسي الكبير شهاب الدين محمود بن عبد الله (١٢١٧ - ١٢٧٠هـ) (١٨٠٢ - ١٨٥٤م) وهو مفسر ومحدث وأديب سلفي الاعتقاد. ومن أشهر كتبه: (روح المعاني) في التفسير، فيه أشياء صحيحة في تنقية الدين من الخرافات وفيه تصوف أيضاً، ومن كتبه: (النفحات القدسية في الرد على الإمامية)، وتابعه في هذا الإصلاح وبشكل أقوى وأوضح حفيده محمود شكري الآلوسي (١٢٧٣ - ١٣٤٢هـ) (١٨٥٧ - ١٩٢٤م) وهو مؤرخ وعالم ومن الدعاة إلى الإصلاح، حمل على أهل البدع، وتصدى للرد على الشيخ

---

(١) ولد في قرية (شوكان) تعلم في صنعاء وتتلمذ على كبار علمائها، في عام ١٢٠٩هـ تولى القضاء وبقي في هذا المنصب حتى وفاته.

يوسف النبهاني من زعماء الصوفية في عصره. يقول الأستاذ محمد بهجت الأثري عن الآلوسي الحفيد: «كان نهاره كله مصروفاً من شروق الشمس إلى غروبها – إلا سويعات منه – في تدريس هذه الثقافة العربية الإسلامية وإتاحتها لقاصديه[1]». وقد انتدبته الدولة العثمانية للسفر إلى نجد والسعي لدى أميرها عبد العزيز آل سعود للقيام بمناصرتها، وله مؤلفات كثيرة من أشهرها: (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) و (فتح المنان) في الرد على أهل البدع، وشرح مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتاريخ نجد، و (صب العذاب على من سب الأصحاب).

وفي الشام كان للشيخ جمال الدين القاسمي (١٢٨٣ – ١٣٣٢هـ) (١٨٦٦ – ١٩١٤م) دور كبير في تحرير الفكر من التقليد الأعمى والبدع والخرافات، ومن أشهر كتبه: (محاسن التأويل) في تفسير القرآن، و (دلائل التوحيد) و (قواعد التحديث)..

ومن هذا الصنف من العلماء الذين يشعرون بأن عليهم عبء الإصلاح والنهوض الشيخ محمد بن العربي السملالي من القطر المغربي (١٢٤٩ – ١٣٢٣هـ) (١٨٣٣ – ١٩٠٥م) وهو داعية إصلاح ديني تصدى لدفع ما رأى أن الشرع لا يقره، وحارب الطرق المنحرفة، أولع بإتقان الصناعات اليدوية، فزاول البناء والتجليد والميكانيك، وصنف

---

(١) نقولا زيادة: أعلام العرب المحدثون / ١٦٥.

كتاب (الحيل) وكتاب (الكيفية التي يصلح بها النبات[1]) .

هؤلاء الأعلام يجمعهم الاتجاه للإصلاح الحقيقي، مع اختلافهم أحياناً في طريقة العرض وقوة التوجه، وملاحظة ما حولهم من تدفق الحضارة الغربية، ولم يديروا النهضة على سبب واحد؛ فالاهتمامات كانت شاملة، فقد كلف الشيخ محمود شكري الآلوسي بمهمة سياسية إلى نجد، والشيخ القاسمي يهتم بالصناعات ويكمل كتاب والده عن الصناعات الشامية، والمرتضى الزبيدي يوجه اهتمامه إلى اللغة العربية، وإن اسماً لامعاً كالشيخ الجبرتي الكبير (حسن بن إبراهيم العقيلي) (١٦٩٨ - ١٧٧٤م) لدليل على أن جذور النهضة قد بدأت قبل ما يؤرخ لها بعض الكتاب اليوم؛ فهذا الشيخ كان فقيهاً حنفياً « وفي سنة ١٧٣١م ولّى وجهه شطر العلوم الطبيعة فجمع كتباً من كل مكان، وقضى في ذلك عشر سنوات، ثم قرأها حتى ملك ناصيتها، في الهندسة، والفلك والصنائع، حتى في النجارة والحدادة والتجليد والنقش وصار بيته زاخراً بكل أداة في الصناعة، ولجأ إليه مهرة الصناع يستفيدون منه[2] »، يقول عنه ابنه عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ: « وحضر إليه طلاب من الإفرنج، وقرؤوا عليه علم الهندسة وذلك في سنة تسع وخمسين (١١٥٩هـ) (١٧٤٦م) وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة، وذهبوا إلى

---

(١) خير الدين الزركلي: الأعلام ٦ / ٢٦٦ .

(٢) محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا / ٨٣ .

بلادهم ونشروا بها العلم[1]» ورحم الله الجبرتي الكبير كان على خلق أهل الإسلام، لا يكتم علماً عن أحد.

تاريخ النهضة:

لم تبدأ النهضة إذن، كما يدندن الكثير من رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي، فهما وإن كانا يريدان النهضة، ولكنهما يريدانها مُركَّباً من التقدم الأوروبي مع نوع من تهذيب الأخلاق والاستفادة من الشريعة الإسلامية أو ما يسمونه: (التقدم الروحي). فالاهتمام كان لتحديث الدولة والوقوف أمام التيار الأوروبي ولم يكن مشروعاً متكاملاً، وواقع الشيخ الطهطاوي يمثل الالتحاق بمشروع الدولة، المنفذ لسياستها، وسياسة محمد علي باشا كانت ترمي لتهميش الأزهر، وتسخير كل الإمكانات لصالح مركزه الخاص ولصالح العسكر، وكذلك الذين جاؤوا من بعدهم من رجال الإصلاح كالشيخ محمد عبده، فإن الجدلية الغربية ومفهومها للتقدم والتمدن فرضت نفسها عليهم، فعندما قال: رينان وكرومر إن المسيحية هي المولدة للتمدن، وأن الإسلام مضاد له، اندفع الكتاب المسلمون في هذا التيار الذي خطه الغربيون، وراحوا يدورون ما بين دفاع وتسويغ، مسلِّمين لخصومهم بمفهوم التمدن والتقدم[2].

لم تبدأ النهضة من احتلال نابليون لمصر، ودخول خيله للأزهر كما يحلو لمزوري التاريخ والثقافة؛ فهذا الاحتلال كان مقدمة للاحتلال

---

(١) عجائب الآثار ١/ ٣٩٧.

(٢) فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام/ ٣٩٩.

الإنكليزي، ودخول المنطقة في دوامة العهد الاستعماري. كان المسلمون على استعداد للترقي والنهوض قبل حملة نابليون، ولم يكونوا بحاجة للصدمة الحضارية التي حملها معه، فهو (وإن بذر بذرة التحدي، إلا أنه لم يقدم لهذه البلدان روح العلم الذي تنهض به[1]» وكيف يقدم لها روح العلم، وإنما جاء لتدميرها، وقد ارتكب في ثورة القاهرة (١٧٩٨م) من القسوة وسفك الدماء، ما يرتكبه القادة الغزاة المتوحشون، ودخلت خيله الأزهر، وكسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبة، ورموا الكتب والمصاحف على الأرض[2].

ومن الأدلة على هذا الاستعداد للترقي قبل الغزو النابليوني، أن أحد المهاجرين من الأندلس ويدعى: أحمد بن القاسم، والملقب بـ (الشهاب الحجري) غادر أسبانيا عام ١٥٩٨م، واستقر في المغرب، وعمل مترجماً في بلاط السلطان أحمد والسلطان زيدان، اتصل في تونس بأحد كبار العسكريين المهجريين ويدعى الرئيس إبراهيم بن أحمد بن غانم وكان من الخبراء في المدفعية، اكتسبها من عمله في الأسطول الأسباني. قام الشهاب الحجري بترجمة كتاب عن المدفعية أعده الرئيس ابن غانم، ودعاه (العزة والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع) ولعب هذا الكتاب دوراً كبيراً في مواجهة المدفعية الأسبانية[3] وشبيه بهذا العمل ما قام به الشيخ

---

(١) شاكر مصطفى: موسوعة دول العالم الاسلامي ٢/ ١٣٤٢.

(٢) محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر.

(٣) شاكر مصطفى: موسوعة دول العالم الإسلامي ٢/ ١٣٤٢.

محمود قبادو التونسي (١٨١٣ - ١٨٦١م) حين ترجم كتاباً للجنرال (جوفي) في التعبئة الحربية، وتولى الشيخ تهذيب ترجمته وتنقيح لغتها واختيار المصطلحات العربية العلمية، مع مقدمة طويلة دعا فيها الشيخ إلى الأخذ من الغرب العلوم الحربية والعلوم الطبيعية وكان واضحاً في هذا، وليس عنده محاولات للترقيع مع مدنية الغرب، ومع هذا التبسيط في الطرح، فإنه أسلم من محاولات الطهطاوي وأمثاله الذين نظروا للمشكلة من زاوية القوانين، وبعض الأمور الحضارية، مثل قولهم: «القوانين الطبيعية عند الغرب هي أصول الفقه عند المسلمين، يقول الشيخ قبادو: «فخذ ما أحماه الفهم، ودع ما أنماه الوهم، أما علمت أن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها، ولا يبالي أين يجدها» ويخاطب المسلمين الذين لا يفقهون سنن التقدم: «فقل لأقوام عن سنن الله يعمهون، وفي تيه اطراح الأسباب يهيمون، قد برح الخفاء ولكن لا تفهمون[1]».

كانت جذور النهضة بادية قبل الحملة الفرنسية، عندما استطاع علماء الأزهر تكوين جبهة موحدة من المشايخ الكبار: الشيخ السادات، وعمر مكرم، وعبد الله الشرقاوي، والشيخ البكري. وقف هؤلاء أمام ظلم المماليك وأجبروهم على توقيع وثيقة تتضمن رفع الظلم وإقامة العدل، كان ذلك عام (١٧٩٤م) قبل الحملة الفرنسية بأربع سنوات.

كانت حالة العالم الإسلامي قبل مرحلة الاستعمار مؤهلة للتقدم، وتحمل بذور النهضة، كانت هناك صناعات نسيج في مصر والشام قادرة

(١) فهمي جدعان: أسس التقدم/ ١١٩.

على كسوتنا جميعاً، وأصبحنا نلبس القماش الإنكليزي[1]. وبعد أن فرضت بريطانيا على الدولة العثمانية أن تخفض التعرفة الجمركية، كانت البضائع الأوروبية قد أغرقت الأسواق العثمانية «كانت الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي ورغم فساد الإدارة، كانت مرهوبة عند خصومها اللاتينيين، حتى إن بعضهم كان يستعدي الجزائر على بعض، وكان يستقرض منها المال فتقرضه[2]».

لم يتح لهذه البدايات الصحيحة أن تُنمّى وتطور، وننتقل منها إلى مشروع نهضوي عملي، يجنب البلاد العربية والإسلامية ما وقعت فيه من التخبط الفكري والتخلف الحضاري؛ فالذين جاؤوا بعد هذه البدايات شُغلوا بالجانب النظري، وشغلوا بالفكر الدفاعي والردود على المستشرقين، كما انشغل بعضهم بالتصدي لجبهات عدة جبهة الليبراليين، والعلمانيين والاشتراكيين. ومشروع النهضة يجب أن يكون متكاملاً، ويحق للمخلصين العقلاء من هذه الأمة الاجتماع على ما يناسب خصوصيتها.

* * *

(١) حسين مؤنس: الحضارة/ ٣٥٠.

(٢) البشير الابراهيمي: الأعمال الكاملة ٥/ ١١٧.

مفهوم الحضارة

عند مالك بن نبي

تمهيد:

تحت عنوان: (مشكلات الحضارة) أصدر المفكر الجزائري مالك بن نبي كتبه، سواء التي كتبها بالفرنسية أم بالعربية، وهذا العنوان كان جواباً لسؤال ما يزال يلح على المسلمين منذ أن صدموا بالحضارة الغربية وهي تطرق الأبواب وتسد عليهم المنافذ وكان السؤال: ما هي أسباب تقهقر المسلمين وما هي شروط النهضة؟ والإجابة على هذا السؤال كان محور كتابات وأقوال الذين تصدوا للإصلاح. ولكن مالك بن نبي يرى أن هؤلاء كانوا (لا يعالجون المرض بقدر ما يعالجون أعراضه[1]) والمرض الحقيقي هو في داخل شخصية المسلم أو العربي فهو يحمل بين جنبيه أمراضاً اجتماعية ونفسية وفكرية تعيقه عن النهوض: إذن كيف نصوغ عقله وشخصيته حتى يعود إلى فاعليته، والجواب عند مالك: «مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو

---

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة/ ٥٩.

تهدمها[1]) . والمسلم اليوم كما يرى مالك لا يعيش حالة حضارة وإنما هو من بقايا حضارة ولابد من إدخاله مرة ثانية في دورة الحضارة، فالإنسان السابق على الحضارة (العربي قبل البعثة المحمدية مثلاً) هو مثل جزيء الماء قبل أن ينحدر بقوة لينتج طاقةً كهربائية . فهذا الجزيء منطو على طاقة مذخورة، ولكنه يفقد طاقته بعد أن استنفدها في إنتاج الكهرباء . وهذا يعني أننا بحاجة لرفعه مرة ثانية كي يستطيع الإنتاج . والمشكلة أن إنسان ما قبل الحضارة أقرب للفطرة والقوة، وهو بعد الحضارة يحمل أمراضاً كثيرة . الإسلام نقل العرب إلى حضارة وأنتج الفرد أشياء كثيرة، ولكن في عصر التخلف وغياب المناخ العلمي لم يستفد المسلمون من اكتشاف ابن النفيس للدورة الدموية، فلم تتراكم المعلومات والمعارف، ولم يتقدم بعده علم الطب .

ما هي الحضارة؟

ليس هذا المقال في مجال الدخول في معترك تعريف الحضارة عند من كتبوا حولها، فبعضهم يعتبر الحضارة آخر مراحل المدنية والرفاهية، ولذلك يعتبرها بداية للانحدار؛ فالحضارة عند ابن خلدون هي (معاناة فنون الملاذ والتفنن في الترف واستجادة أحواله[2]) وقريب منه تعريف المؤرخ الألماني (شبنجلر) الذي يرى أن (الثقافة هي مرحلة النمو، فإذا وصل الأمر إلى

---

(١) المصدر السابق / ٢٣ .

(٢) المقدمة : ٢ / ٨٨٨ نشرة علي عبد الواحد وافي .

الحضارة فهي النهاية[1]) وكما يقال : لا مشاحة في الاصطلاح، فحسب تعريف المفكر أو المؤرخ للحضارة يمكن أن تقول إن هناك حضارة غربية وحضارة صينية وحضارة إسلامية . . . وقد يقصرها البعض على ثقافة معينة حسب تعريفه .

يعرف مالك بن نبي الحضارة بأنها : « مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد في كل طور من أطوار حياته المساعدة الضرورية[2] » أو هي : « إنتاج فكرة حية تطبع على مجتمع الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ[3] » . فالحضارة عند مالك هي الحاضنة للتقدم، والمحيط المناسب لإشاعة ثقافة العلم، حين تعطي الفكرة المسوغات الدافعة لليد والعقل للاستفادة من الوقت .

وأضرب مثالاً يوضح فكرة ابن نبي : قد يكون العربي (قبل الإسلام) على درجة كبيرة من الذكاء وعنده من أخلاق الشجاعة والكرم والوفاء الشيء الكثير، ولكن بغير الحد الأدنى من الثقافة فإنه ينفق ذكاءه في البحث عن القوت ؛ فالحضارة تبدأ حين يتعلق الإنسان بمبدأ سماوي، وحين ينتهي الترحل والقلق والاضطراب، أي لا بد من الاستقرار في الحضر، فإذا أمن الإنسان تطلعت نفسه نحو الإبداع والإنشاء . وقد امتن الله سبحانه وتعالى على قريش بنعمة الأمن، وهي القبيلة التي سيخرج منها

---

(١) حسين مؤنس : الحضارة / ٣٩٠ نشرة عالم المعرفة – الكويت .

(٢) آفاق جزائرية / ٣٨ .

(٣) مشكلة الأفكار / ٤٩ .

الجيل الذي التف حول الرسول ﷺ وقاد الدولة الإسلامية. قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣، ٤]. وقد صنعت الحضارة الإسلامية لأول عهدها ثقافة مشتركة جعلت العرب يقبلون على العلم بنهم عظيم، حتى إننا نجد الواحد منهم يطلب العلم ويجالس العلماء عشرات السنين.

عوامل تشكيل الحضارة:

صاغ مالك بن نبي العوامل التي تشكل الحضارة بالمعادلة التالية:

ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت. ولكن هذه المعادلة لا تعطي ثمارها إلا بمفاعل أو مركب يدمج هذه العناصر ويعطيها غاية؛ وهذا المفاعل هو الدين أو ما أسماه: (الفكرة الدينية) أو (العنصر الأخلاقي) وسواء كان هذا الدين سماوياً حقاً كالإسلام أو عقيدة ومبدأ يبلغ عند أصحابه مبلغ الدين. وحسب تعريفه فإن الصين أقلعت باتجاه حضارة، وقبلها اليابان والاتحاد السوفييتي (سابقاً) والحضارة لا تكون بأن نكدس ونشتري منتجات الآخرين، وإنما بحل هذه المشكلات الثلاث: الإنسان، التراب، الوقت. وإذا بدأنا بالإنسان فإن المسلم تخصيصاً، وحتى يدخل في دورة حضارية جديدة لا بد أن يدرك أهمية شبكة العلاقات الاجتماعية، ويتعلم كيف يكون لبنة في (البنيان المرصوص). إن تدين هذا المسلم تدين فردي لإنقاذ نفسه في الآخرة، ولم يوظف هذا التدين للبناء الاجتماعي، ونرى هذا المسلم الذي لا ينقصه الإخلاص لا يحسن

حل مشاكله؛ لأنه تعلم وأخذ الشهادات، ولكنه لم يتعلم ليكون فعالاً، هناك خلل في طريقة تفكيره تشله عن التخطيط لنهضة قادمة، **ومن أمثلة هذا الخلل:**

١ - مرض السهولة: فالمسلم في تقويمه للأشياء إما أن يغلو فيها أو يحط من قيمتها، إما أن الأمور سهلة جداً أو مستحيلة، فهناك من يظن أنه بخطبة نارية تحل كل المشاكل، وشراء منتجات الآخرين أسهل بكثير من الحصول على الأفكار الضرورية لصنعها، وهناك من ينتظر البطل وينتظر المعجزة للخروج من المأزق الذي نحن فيه.

٢ - طغيان الأشياء: عندما يكون مجتمع في حالة نهوض فإنه يحقق التوازن بين الأشياء والأفكار والأشخاص، ولكنه في حالة التخلف تصبح القيمة للأشياء، وتتغلب النزعة الكمية؛ فالمؤلف يفتخر بأنه ألف كتاباً من كذا صفحة، ولا يهم بعد ذلك ما هو المضمون، والموظف الكبير يحب أن يكون في غرفته أربعة هواتف، ويميل الناس إلى تكديس الأشياء ويقبلون على الاستهلاك، ويظنون أن هذه هي الحضارة، والمحاكاة الحضارية هي دوما محاكاة لما هو أسوأ، ولما هو أبعث على الضحك، وهذا يفسر لنا لماذا اجتاحت موجة الإسمنت الصحارى مع أنه جاذب للسخونة!

٣ - طغيان الأفكار: عندما لا يستطيع المسلم أن يقوم بعمل مثمر فإنه يلجأ للأفكار المجردة التي لا تمس الواقع المعاش، أو يفتعل معارك وهمية

ليكون هو أحد أبطالها ولتعطيه المسوغ للهروب من الواقع.

٤ - **الحق والواجب**: إن أهون الأشياء عند الأمة التي تصاب بمرض السهولة أن تطالب بحقوقها وتنسى واجباتها، وهكذا تلجأ إلى مناشدة الأمم المتحدة والمجتمع الدولي والمطالبة بالحقوق فقط هو منشأ سياسة الدجل التي مارسها السياسيون لأنها تجذب النفعيين كما تجذب الحلوى الذباب.

٥ - **العقلية الذرية**: والمقصود النظرة الجزئية للأحداث والوقائع (مجزأة منفصلة فردية وكأنها كوما من الأحداث، ولا يشكل مجموعها حلقة في التاريخ[١]). والأعمال لا تتسم بالجهد المتواصل بل بالتتابع المنفصل؛ وهذه عقلية طارئة؛ فالمسلم في العصور الأولى تتبع الجزئيات ليشكل منها قواعد عامة ونظرة شمولية؛ وذلك عندما أنتج (علم أصول الفقه). لم يكتف مالك بن نبي بالحديث عن الحضارة وعناصر تكوينها بل تكلم عن النهضة والإقلاع الحضاري كما يسميه، **ومن مقومات هذه النهضة**:

١ - الإيمان العميق بالمبدأ (حيثما فقدت الروح سقطت الحضارة[٢]).

٢ - القدرة على التعاون وقوة التماسك بفضل الأخلاق وإحكام

---

(١) مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة/ ٥٣.

(٢) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي/ ٢٦.

شبكة العلاقات الاجتماعية، ففي حالة التخلف كان المجتمع مليئاً بالكتب والمكتبات ولكن الشبكة كانت قد تمزقت.

٣ – توجيه الثقافة والعمل ورأس المال لتكون هذه الأمور في خدمة النهضة، فالإقتصاد القوي لا يكون يتكديس الثروة بل بتحريك رأس المال وتوجيهه.

المعادلة الحضارية:

رغم هذه التحليلات الدقيقة للفرد والمجتمع عند مالك بن نبي ومحاولته علاج أمراض ما بعد الحضارة، ورغم حديثه القوي عن النهضة والتقدم، إلا أننا نلمح من تعريفه للحضارة ومكوناتها: **إنسان + تراب + وقت**، نلمح جانباً مادياً واضحاً، وتأثراً واستلهاماً لأفكار علماء الاجتماع والتاريخ وعلماء النفس في الغرب؛ فهؤلاء لهم تفسيرهم للحضارات ومكوناتها، فجاء مالك وأنزل هذا التفسير على الحضارة الإسلامية، وحسب تعريفه فإن الاتحاد السوفييتي أقلع باتجاه حضارة وما ذلك إلا لتبنيه مبدأ الاشتراكية والبدء بنهضة صناعية مع أنه نظام غير إنساني ولا أخلاقي، فقد قتل الملايين وشرد الملايين لفرض مبادئه بالقوة؛ وذلك في عصر لينين وستالين؛ في حين أن مالكاً يعتبر عصرهما عصر بناء عظيم[1]، وهو يعتبر الماركسية فكرة مركبة للمعادلة التي وضعها بل ويشيد بهذه الماركسية عندما تكلم عن مؤتمر باندونغ وأنه (يضم تراثاً فكرياً فيه

---

(١) مشكلة الأفكار/ ١٢٠.

روحانية الإسلام على طرف وماركسية الصين على الطرف الآخر[1]) وراح يؤيد دولاً ديكتاتورية عسكرية مثل ثورة يوليو في مصر (التي تحقق في هذا النطاق التقدم الإنساني في أعظم أشكاله، هذا التقدم الذي نشهد تحققه في الجمهورية العربية المتحدة[2]) كما أيد حكومة بومدين في الجزائر لتبنيها الحل الاشتراكي.

إن فكرة المفاعل أو المركب لعناصر الحضارة قد قال بها (كسرلنج) ويسميها : (Ethice) ويعتبر أن حضارة أوروبا ترتكز على روحها الدينية. نعم إن فكرة (كسرلنج) تنطبق على أوروبا الحديثة التي تكونت من بقايا المجتمع الروماني، تكونت من عناصر سياسية واقتصادية وجغرافية، ثم جاءت النصرانية فأعطتها بُعداً قوياً، ولكنها جاءت عاملاً مضافاً إلى العوامل الأخرى؛ فالمجتمع الروماني كان مؤسَّساً بروابط عرقية وسياسية وإقليمية، ودخلت النصرانية على مجتمع مركب، وهذا لا ينطبق على المجتمع الإسلامي الذي تكوَّن أساساً بالدين، والعوامل الأخرى جاءت مرتكزة إلى الدين مثل السياسة والاقتصاد والنسب... فالخطاب الإلهي في القرآن لم يتوجه إلى أمة معينة ولا إلى قبيلة معينة، وإنما توجه إلى الناس جميعاً أفراداً وجماعات، ولكن من حيث كونهم (ناساً) لقوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس ﴾ فالذين استجابوا لهذا النداء تكوَّن منهم مجتمع بإرادتهم وتوافقهم وكانت الرابطة ترجع إلى الدين؛ وبذلك تكون شبكة

---

(١) الفكرة الأفروآسيوية / ٩.

(٢) ميلاد مجتمع / ٤٨..

العلاقات الاجتماعية – التي يهتم بها مالك كثيراً – هي أقوى ما تكون لأنها مرتبطة بالمعنى العبادي، وكذلك الأخلاق، فهي مرتبطة بالعقيدة وهذا أدوم لها وأبقى، وهذا هو المعنى الذي أشار إليه الحديث: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وإن كانت الحضارة جزء من الدين ففي الدين تركيز واضح على حقائق وأحكام ثابتة، بينما في التتابع الحضاري إيحاء بوجوب التنقل من طور إلى طور؛ فالإسلام ليس عنصراً مساعداً كأي فكرة يتحمس لها البشر، بل هو دين يصبغ المجتمع بصبغته الخاصة وحضارة الإسلام لا تنتهي؛ لأن أساسها ليس عنصراً بشرياً يناله الضعف أو البلى، ولكن أساسها العقيدة[1]». والتمدن الحقيقي مكافئ للدين؛ فالدين هو الذي يتيح للإنسان الارتقاء فوق مراتب البهيمية الدنيا، والدين هو الذي يسمح ببناء نظام اجتماعي متماسك يسعى لخير المجموع[2]). وإذا كان مالك بن نبي يعتبر أي فكرة تبلغ مبلغ الدين عند أصحابها مثل الماركسية أو مبدأ اللاعنف عند غاندي يصلح لأن يكون مركباً لعناصر الحضارة، فإن المؤرخ (ول ديورانت) كان أكثر دقة منه حين ذكر أن من عناصر الحضارة: الإيمان بما هو كائن وراء الطبيعة[3].

كما أخذ مالك عن المؤرخ الألماني (شبنجلر) تقسيمه لدورة الحضارة

---

(١) حسين مؤنس: الحضارة/ ٢٨٠.

(٢) فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام/ ١٦٥ والكلام لجمال الدين الأفغاني.

(٣) قصة الحضارة ١/ ٧.

إلى مراحل ثلاث: روحية، عقلية، غرائزية. وقريب منه تقسيم المؤرخ الإيطالي (فيكو) لدورة التاريخ لكل أمة: المرحلة الدينية، مرحلة البطولة، مرحلة التمدن والنضج ثم الانحدار. والحقيقة أن هذه التقسيمات يمكن أن تصدق على شعوب مثل الفرس أو اليونان، أما الأمة الإسلامية فليس الدين مرحلة من مراحلها، وهي أمة غير منقطعة وإن كانت تمر بفترة ضعف أو تقهقر إلا أنها تتجدد ولا يخلو قرن من تجديد. وأما قول مالك إن الإنسانية بلغت رشدها في هذا العصر وأنها تتجه نحو حل مشاكلها على أساس نظم الأفكار فهذه مثالية قريبة من مثالية هيغل الذي يعتقد أن البشرية في حالة تقدم دائم. والحقيقة يجب أن نكون على حذر من مفاهيم التقدم والتخلف، والبدائية والحضارة؛ لأنها قد تعني التقدم المادي بشكل عام. والعبرة في منجزات البشر هو ما ينفع الناس وييسر لهم سبل الاستقرار والأمن «فرغيف الخبز مثلا أنفع للبشر من الوصول إلى القمر، والصاروخ الذي دفع مركبة القمر هو الصاروخ الذي يعبر القارات ويقضي على الناس»[1]. وقد نجد مجتمعاً خالياً من الأشياء الكثيرة ولكنه أقرب للفطرة والأخلاق الأساسية؛ فقد جاء سيدنا يوسف عليه السلام من البادية، وكان هذا المكان الذي نشأ فيه أشد صفاء ونقاء من المجتمع الذي انتقل إليه، وكان إنقاذ هذا المجتمع الأخير على يديه. فهل المهم هو التقدم ولو على حساب عذاب الإنسانية والأزمات الخانقة والحروب المدمرة؟!

---

(١) حسين مؤنس: الحضارة/ ١١.

مفهوم الصراع في القرآن الكريم

وفي الثقافة الغربية

مقدمة:

يتهيأ للناس أحياناً أن السعادة هي أن يعيش الإنسان حياة كلها سرور وانسجام، وصفاء ووفاق، وأن تتوفر له كل أسباب الراحة، وقد يحلم هذا الإنسان بزمان يسود فيه السلام بين البشر، فلا نزاع ولا تنافر، ولا تسابق ولا تغالب. ولكن الإنسان لا يدري أن حياة كهذه سوف تؤدي به إلى الركود والخمود، كما تؤدي إلى تبلد العقل، وهي حياة تخنق المواهب وتقضي عليها؛ فقد خلق الله الإنسان وفيه صفات فردية تخالف ما عند الآخرين كي تحفز قواه وتطور مواهبه، هذه الحياة فيها ابتلاءات كثيرة ليترقى الإنسان ويزكي نفسه ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢]. وتعدد الأجناس البشرية يؤدي للسباق فيما بينهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] ولكن الإنسان لن يكون مسالماً لدرجة التعارف، فالتنافس سيستمر حسب سنة الله الكونية، وهذا ما توحي به بقية الآية ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فكما أن الله خلق الجن والإنس ليعبدوه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

[الذاريات: ٥٦]. ولكن الواقع أن كثيراً من الناس لا يعبدونه كما أمر، وكذلك ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ فإن كثيراً من الناس لن يتعارفوا، فالتعارض جزء طبيعي من الحياة، والصراع سيبقى وهو يدل على توفر الحيوية، وسيكون من عوامل تقوية شخصية المسلم (فكما نقوي عضلاتنا من خلال تدريبها على حمل الأثقال، كذلك نقوي شخصيتنا من خلال التغلب على التحديات[١]). والصراع قانون سرمدي لا فكاك منه «والإنسانية لن تكون أبداً بمنأى عن عوامل التنافس بين الأفراد وبين المجتمعات والأمم المتدافعة على سطح المعمورة[٢]».

«والصراع سنة اجتماعية اقتضتها الحكمة الإلهية في ابتلاء البشر بعضهم ببعض، ليظهروا استعداد كل فريق منهم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤][٣]». وإذا كان الاختلاف والصراع سنة طبيعية، فإن الإسلام وجَّه هذه السنَّة لخير الإنسان وخير البشرية فجعله صراعاً بين الخير والشر، بين الحق والباطل، وليس صراعاً لأجل انتهاب الأموال، أو تدمير الأوطان، ولا صراعاً لتعصب جغرافي أو تعصب قَبَلي نسبي.

---

(١) ستيفن كوفي/ ادارة الأولويات/ ٤٢١.

(٢) فهمي جدعان/ الطريق إلى المستقبل/ ٤٩

(٣) رشيد رضا: تفسير المنار ١٠/ ٨٥.

مفهوم الصراع في القرآن الكريم:

أعطى القرآن الكريم أهمية كبيرة للسنن الكونية التي تسري على المجتمعات والأمم، في قوتها وضعفها، في عمرانها وخرابها، وذكر القرآن مصائر الذين كذبوا الرسل وعتوا عن أمر ربهم، وكيف كانت عاقبتهم. قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٣]، ومن السنن التي أكد عليها القرآن: سنة التدافع، وذكر أنها لمصلحة البشر ولولاها لظهر الفساد في البر والبحر، وتغلب الباطل ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]؛ وذلك بسبب عصيانهم وجحودهم.

إن التدافع مثل النهر المتدفق يزيل ما يعترضه حتى يستقر على مجرى هادئ فيه منافع للناس، وإذا لم يكن ثمة تدافع تفسد الأرض كما يفسد الماء الراكد الآسن، قال المفسرون في شرح آية التدافع: «أي لولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق، وأهل الفساد في الأرض بأهل الإصلاح لغلب أهل الباطل وبغوا على الصالحين[1]. فالتدافع بين الحق والباطل أمر لا بد منه لأنهما ضدان لا يجتمعان، ولا يتصور أن يعيش الحق والباطل في سلم دون غلبة الحق، وربما يغلب الباطل أحياناً لأمر ما ولحكمة مقدرة ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

---

(١) رشيد رضا: تفسير المنار ٢/ ٤٩١.

والفساد لا يدفع بغير دافع، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. وقال: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]. أي أن الإيمان وأهله، والكفر وأهله خصمان مذ كانا إلى يوم القيامة.

ومن الآيات في سنة التدافع قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. قال الشيخ القاسمي في تفسير هذه الآية: «أي لولا كفه تعالى المشركين بالمسلمين لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم، وعلى متعبداتهم فهدموها[١]» فهدم صوامع النصارى وبِيَعهم فساد إذا هدمها المجوس والمشركون، ولكن إذا قام مقامها المساجد التي يذكر فيها اسم الله وحده فهذا خير وصلاح «فالله سبحانه يدفع بالمؤمنين الكفار، ويدفع شر الطائفتين بخيرهما، كما دفع المجوس بالروم، ثم دفع الروم بالمؤمنين، والرسل بعثوا بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وتقديم خير الخيرين على أدناهما ودفع شر الشرين بخيرهما، وهذا كما قال في سورة البقرة: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١][٢]» وقال ابن عطية: «ذكر الله تعالى أنه (أي التدافع) متقدم في

---

(١) محاسن التأويل ١٢/ ٣٠.

(٢) ابن تيمية: الجواب الصحيح ١/ ٢٧١.

الأمم، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات ولولا القتال لَتُغُلِّب على الحق في كل أمة[1] » .

إن الذين يحلمون أن تصل البشرية إلى مرحلة ليس فيها تنافس أو صراع (وإن كان حضارياً) هؤلاء لا يعلمون حكمة الله في الخلق ولا سنته في المجتمعات والأمم ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ ﴾ [فاطر ١٩ – ٢٢] ، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود: ١١٧] . فالمسلم يرى أن التاريخ حركة صراع يحل فيها المجتمع الإسلامي محلَّ المجتمع الساعي وراء الأهداف الدنيوية البحتة، وهذا الصراع مستمر، وهو محرك رئيس من محركات التاريخ .

مفهوم الصراع في الثقافة الغربية:

كان بعض فلاسفة أوروبا في القرن التاسع عشر يحلمون بمستقبل زاهر للإنسان، فالحروب في نظرهم تمثل مرحلة الطفولة، والإنسان بطبيعته مسالم واجتماعي، وستزول في المستقبل آثار الدولة القومية والخلافات الدينية .

وتوقع الفيلسوف الألماني (كانت) سلاماً دائماً للبشرية[2]، ولكن هناك من يخالف هذه النظرة وخاصة بعد الحرب الكونية الأولى، يقول

---

(١) تفسير ابن عطية ١٠ / ٢٨٩ .

(٢) أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ / ٢٤٤ .

الفيلسوف (هوايتهد) : « إن صراع العقائد والمذاهب ليس كارثة، بل فرصة[١] » وأما العسكري المجرب (كلاوزفتز) فيرى « أن الحرب التي تبغي العظائم أكثر توافقاً مع الطبيعة[٢] » .

إن فكرة الصراع الأبدي بين قوى الحق وقوى الباطل استلهمها الغرب من الحضارات الرومانية واليونانية، فالتاريخ في هذه الحضارات دورات لا تنتهي، قد تفوز فيها قوى الشر، ولكن في نهاية المطاف فإن قوى الخير هي التي تفوز، وهذا من أسباب احتفالهم بما يسمونه عيد الميلاد (الكريسمس) في الخامس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) لأنه بعد هذا التاريخ تبدأ الزيادة في النهار، وهذا انتصار لكبير آلهتهم (إله الشمس) في معركته مع الظلام، وعندما تنصر الروم أدخلوا هذه الاعتقادات الوثنية في ديانتهم الجديدة بل نستطيع أن نقول إن الغرب مريض بعقيدة الإله الذي حَلَّ في الإنسان (سبحانه وتعالى عما يشركون) فكل غربي يعتبر نفسه متفوقاً يجب أن يخضع العالم لنزواته وأهوائه « فهي عقيدة تبحث عن بربرية جديدة، تحدد بالإضافة إليها الحضارة الغربية[٣] » .

بعد انتهاء الحرب الباردة، وسقوط الاتحاد السوفييتي دندن الغرب حول موضوع السلام العالمي والنظام العالمي الجديد، ولكنه سلام حسب

---

(١) نديم البيطار : الفعالية الثورية / ٢٥ .

(٢) تراث الإنسانية ٣ / ٧٣٠ .

(٣) أبو يعرب المرزوقي : مقال في القدس العربي ١٤ / ٣ / ١٩٩٧ .

ما يقدر له هو، سلام القوة الواحدة المهيمنة التي تفرض على العالم ما تريده، سلام يتدخل في أزمات العالم لإنشاء نظام يخدم المصالح الغربية والأمريكية بشكل خاص، وكل هذا التدخل ما هو إلا (مقدمات) لمزيد من السيطرة التي لا يتوقعها أحد، ولم تمض سنوات قليلة على كتاب (نهاية التاريخ) لليباباني المتأمرك (فوكو ياما) حين أراد تكريس الثقافة الغربية الليبرالية، وأن التاريخ سيتوقف عندها حتى كتب (هنتنغتون) مقاله الشهير: صراع الحضارات ليقول: «إن المفهوم القائل إنه يمكن أن تكون هنالك حضارة عالمية يتناقض مباشرة مع خصوصيات المجتمعات الآسيوية». وبرأي هذا الكاتب فإن الانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية، وليست (أيديولوجية) أو اقتصادية، ستحدث النزاعات بين أمم ومجموعات لها حضارات مختلفة، لقد حل الستار المخملي للثقافة محل الستار الحديدي (للأيديولوجيا) كان التقسيم خلال الحرب الباردة: عالماً أول، ثانياً، ثالثاً، والأجدى حالياً تصنيفه من حيث الثقافة والحضارة ورغم اعتراف (هنتنغتون) بأن الغرب يستغل المؤسسات الدولية والقوة العسكرية والموارد الاقتصادية لإدارة العالم، إلا أن همه الأول هو كيف لا يفقد الغرب الريادة العالمية في عصر نهضة الثقافات غير الغربية، وكيف يبقى الغرب على وحدته ويتجنب التنافس بين أمريكا وأوروبا، «إنه باحث استراتيجي عما يمكن أن يحقق للغرب غاياته بأقل كلفة، وليس باحثاً في طبائع الحضارات، أو تقديم درس في الأخلاق[1]».

---

(١) المرجع السابق.

إن بعض الكتاب العرب استخفوا بنظريته (صراع الحضارات) وهذا تهرب من الواقع ومن المسؤولية؛ فالصراع بين البشر سنة كونية، هذا مع تأكيدنا أن (هنتنغتون) لا يتكلم عن الصراع كفكرة تبحث عن مصلحة الإنسان ولكنه يبحث عن آليات الصراع المحققة لمصلحة الحضارة الغربية، ولذلك يقترح الحد من توسع القوة العسكرية للدول الإسلامية، كما يقترح أن يتعايش ١,٢٥ مليار صيني و (١٢٥) مليون ياباني وعدة مئات الملايين من الأوربيين والأمريكيين، ومليار هندي، كما جاء في حوار له مع مجلة (فرانكفورتر روندشا) الألمانية . ومن الواضح أنه استبعد في هذا التعايش مئات الملايين من المسلمين؛ فهو يصنف الدول حسب قربها من الغرب « فحجم العقبات يقل بالنسبة إلى بلدان أمريكا اللاتينية وشرق أوروبا، وهي أكبر بالنسبة إلى البلدان الأرثوذكسية، وأكبر بالنسبة إلى المجتمعات الإسلامية والكونفشيوسية » وعندما يقسم العالم إلى ست حضارات يرى أن الصراع لن يكون بين كل هذه الحضارات بل (البؤرة المركزية للنزاع ستكون بين الغرب ودول إسلامية وكونفوشيوسية) ويرى أن النزاع بين الحضارتين الغربية والإسلامية مستمر منذ (١٣٠٠) سنة وهذا التفاعل العسكري الذي يمتد قروناً بين الغرب والإسلام ليس من المرجح أن ينحسر » .

ليس هذا المقال لمناقشة نظرة (هنتنغتون) بكل أبعادها . ولكن يمكن القول إنها نظرية مطابقة للمذهب الغالب في الفلسفة الغربية، ومع كل الانتقادات التي وجهت لها، إلا أن موضوع الصراع بين الثقافات

والحضارات واقع لا مهرب منه، «فالحضارات تسيرها العقائد» كما يقول توينبي، والصراع جزء من نسيج الحياة[1].

إن المدرسة الواقعية في الغرب اليوم ترى أن الصراع بين الدول أمر لا مفر منه، فالدولة هي اللاعب الوحيد في السياسة العالمية والدولة في نظر هذه المدرسة هي (المحتكر لحق استخدام العنف في أرض معينة) فما دام هناك دول ونزاعات قومية ومذاهب مختلفة، فالصراع مستمر، ولكن هؤلاء يحاولون التخفيف من أمر هذا الصراع، فالغاية هي: تقدم الدولة، وتفادي الحروب المدمرة.

نعم! قد تمر بالبشرية فترات سلام وهدوء، ولكن حتى في هذه الفترات نرى الدول تستعد للمستقبل وأخطاره، ويسمون هذا (الردع الأمني) وسماه القرآن ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فإذا جنح الأعداء للسلم، فالمسلمون يجنحون لها، ولكن تبقى سنة التدافع هي الأصل، حتى لا يقع الفساد في الأرض. والذين يتكلمون عن السلام العالمي هم أكثر الناس ميلاً للصراع ولفرض السيطرة، والأفضل للمسلمين توسيع دائرة الصراع لتشمل: الثقافي والاقتصادي، مع الاستعداد العسكري، لتغيير موازين القوى، أو على الأقل لتعديل موازين القوى في عالم لا يأبه إلا للتحالفات الكبرى.

---

(١) فهمي جدعان: الطريق إلى المستقبل/ ٣٣٥.

وأما الذين يتحدثون عن (السلام العالمي) من تلامذة (غاندي) و (اللاعنف) فهؤلاء لا يملكون إلا نظرة طوباوية سطحية ليس لها من رصيد الواقع شيء. وهؤلاء يصمون آذانهم، ويغلقون أبصارهم عما تفعله أمريكا بالعالم الإسلامي، وما تقدمه أمريكا لليهود من سلاح ومال لتدمير المجتمع الفلسطيني، هؤلاء لا يقرؤون أن أمريكا ألقت (٨٨) طناً من القنابل على العراق، وأن القرن العشرين هو الأكثر عنفاً في تاريخ البشرية.

* * *

العرب والسياسة

مقدمة:

يكاد المؤرخون أن يجمعوا، وكذلك الباحثون في تاريخ الفكر الإسلامي، على أن ما قام به الخليفة العباسي محمد بن هارون (المعتصم) من استجلاب عناصر من أجلاف الترك والديلم ومن بدوهم المترحل، يكاد أن يجمعوا على أن فعلته هذه تركت آثاراً سلبية على التحضر الإسلامي وعلى المدنية الإسلامية، وأنها أبعدت العرب – وهم جزء مهم في تركيبة الدولة – عن الفعل السياسي[1] ورجعوا إلى باديتهم كما يقول ابن خلدون، وكان هذا الاستجلاب بداية لتدخل العسكر في أمور الدولة، وتسلطهم على الخلفاء الذين غدوا ألعوبة بين أيديهم، كما قال الشاعر:

خليفة في قفص بين (وصيف) و (بغا)

يقول ما قالا له كما تقول الببغا

و (وصيف) و (بغا) من الجنود الأتراك الذين تحكموا في الخلفاء بعد الواثق ابن المعتصم. وصف الإمام الطبري هؤلاء العساكر: «ذلك أنهم

---

(١) استمرت الحضارة الإسلامية في تألقها في الجانب العلمي والاجتماعي؛ فالعلم بشتى تخصصاته لم يساير السياسة في تدهورها وهذا من خصائص هذه الحضارة.

كانوا عُجْماً جفاة»[1] ووصفهم الجاحظ بأعراب العجم: «فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والفلاحة والهندسة، ولا شق أنهار، ولا جباية غلات، لم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل[2]». والحقيقة أنهم يجهلون أمور الدين وأمور الدولة، وليس لهم ذلك العقل الذي راضه الإسلام، ولا القلب الذي هذبه الدين، وقد تأذى منهم أهل بغداد؛ لأنهم يركضون الخيل في الشوارع فتطأ الشيوخ والأطفال والنساء، وكانت شكاوى الناس سبباً دفع المعتصم لبناء مدينة سامراء ونقل هؤلاء الجنود إليها. ومنذ أن تسلط هؤلاء على أمور الدولة عاشوا على الانقلابات وعسكروا الدولة الإسلامية[3]. ورجعنا - مع الأسف - في تاريخنا الحديث إلى الديكتاتورية العسكرية التي زرعت الخراب والدمار في البلاد التي حكمتها، وفي ظلها كانت هزيمة ١٩٦٧م

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٩ / ١٨.

(٢) رسائل الجاحظ ١ / ٧١ تحقيق عبد السلام هارون.

(٣) نتكلم هنا عن ظاهرة (العسكرة) وظاهرة العسكر الرعوي القادم من أواسط آسيا والمتدثر بغطاء رقيق من الدين ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ ولا نتكلم من زاوية عنصرية، ونعلم أنه لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، ولا ننسى دور المماليك (وهم من أجناس شتى) في صد الغزو المغولي وبقايا الغزو الصليبي. فالحضارة الإسلامية هي التي استوعبتهم ورفعتهم إلى درجة الحكام. ولا ننسى الدور الذي لعبه السلاجقة الأتراك في إنقاذ الدولة العباسية من التسلط البويهي، وعندما قبل المسلمون بهذه الدول فعن وعي ومعرفة بالمصلحة العامة، وأهمية صد الأخطار الخارجية. وفي العصر الحديث وقفت الدولة العثمانية ولفترة طويلة سداً منيعاً أمام الغزو الأوروبي لأقطار العالم الإسلامي.

وكارثة ١٩٩١م.

إن الدولة القُطْرِية في تاريخنا المعاصر لم تجلب عناصر من الخارج، ولكنها جلبت عناصر من الداخل، من أوباش الناس وسقط المتاع، فهذه هي الحماية الوحيدة لهذا النوع من الحكام الذين تنكبوا عن جادة الحق وقلبوا ظهورهم لهوية الأمة، واستمروا في الانحياز لمعسكر الأعداء والرضوخ لمطالبهم التي لا تنتهي.

اتخذ المعتصم هذا القرار لظنه أن هذه العساكر ستكوِّن له عصبية داخلية يحمي بها دولته، خاصة والصراع بين أخويه الأمين والمأمون كان واضحاً أمامه ولم يغب عن ذاكرته، والدول تبحث عن كتلة تؤيدها وتحميها وقد تكون هذه الحماية من القبائل والعشائر، وقد تكون أحزاباً ومؤسسات كما في بعض الدول المعاصرة. أما عصبية الدولة الإسلامية فهي قائمة على لحمة الدين والشرعية الإسلامية والطاعة بالمعروف، والدولة العباسية وإن احتفظت بالشرعية الإسلامية ولكنها لم تستطع صهر العناصر التي تتكون منها الأمة في بوتقة واحدة، وقد أدرك المعتصم متأخراً إخفاق خطته والخطأ الشنيع الذي وقع فيه، فقد ذكر ابن الأثير في تاريخه عن إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له: «نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع (اتخذ وقرب إليه من يثق بهم من الولاة) أربعة فأفلحوا: طاهر بن الحسين وابنه عبد الله، وأنت وأخوك، وأنا اصطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم: الأفشين، وأشناس، وإيتاخ، ووصيف[1]، فقلت يا أمير المؤمنين!

(١) انظر إلى هذه الأسماء؟!!

نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها، واستعملت فروعاً فلم تنجب إذ لا أصول لها[1] » .

من نتائج هذا الإبعاد للعرب:

كان من نتائج ابتعاد المسلمين في المنطقة العربية عن ممارسة السياسة بمعناها الصحيح، وبمعناها العلمي الحضاري، وبكل أبعادها التي تصب في مصلحة الفرد والمجتمع، كان من نتائج ذلك أن فقدت هذه الشعوب الثقة بنفسها، وفقدت الحس التاريخي والاستراتيجي، وعاشت المدن كما يقول ابن خلدون (عيال على غيرها في الحماية) فالمجتمع الحضري بوجهيه المديني والريفي لم يعد يملك مصيره السياسي، وصارت المدن تستدعي الغريب أو العسكر لحمايتها؛ والأمثلة التاريخية شاهدة على ذلك : « وبعد أن اختل أمر مصر بعد كافور الإخشيدي (٣٥٧) هـ كتب جماعة من أعيانها ورجال الدولة فيها إلى أبي تميم الملقب بـ (المعز الفاطمي) يطلبون منه عسكراً ليسلموا إليه إدارة البلاد المصرية » وفي مصر أيضاً وبعد انسحاب الحملة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي حدث فراغ سياسي (كما يقال اليوم) فما كان من زعماء الشعب وعلماء الأزهر إلا أن فوضوا أمور الحكم إلى عسكري ألباني جاء مع كتيبة صغيرة لمساعدة المصريين في مقاومتهم للاحتلال الفرنسي، وكما هي العادة فقد حول هذا العسكري الدولة إلى خديويات مهدوا بتصرفاتهم المالية والسياسية لتدخل الانكليز واحتلال مصر. وفي هذا العصر نستطيع أن نقول : إن شعوب

---

(١) الكامل في التاريخ ٦ / ٧٢ .

المنطقة العربية من أكثر الشعوب كلاماً في (السياسة) بمعناها الظاهر، ومن أبعد الناس عن الممارسة أو المشاركة في السياسة الحقيقية، بل نراها في كثير من الأحوال تلقي بزمام نفسها إلى زعمائها الذين يفرضون أنفسهم عليها، بل ويُستخفّ بهذه الشعوب أحياناً فتطيع وكأنها مسلوبة الإرادة، وقد أظهرت حرب الخليج الثانية هشاشة البُنَى السياسية كما كشفت عن مدى السطحية التي وقعت فيها الشعوب حين أصغت للدجل السياسي ومحاولات زرع الحقد والتعصب الإقليمي.

عودة إلى الجذور:

هل العرب لصفات مركوزة في طباعهم لا يقدرون على تأسيس الدول والاجتماع على صيغة سياسية كما يصفهم ابن خلدون: لأن من عوائدهم «الخروج عن ربقة الحكم، وعدم الانقياد للسياسة» وأن «العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك» وأن «العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية» «وهم متنافسون في الرياسة، وقل أن يسلِّم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته، إلا في الأقل وعلى كره من أجل الحياء، فيتعدد الحكام فيهم والأمراء، وتختلف الأيدي على الرعية فيفسد العمران..»؟ لا شك أن ابن خلدون يتحدث هنا في الغالب عن (الأعراب) أو من قرب منهم أو كان حديثَ عهد ببداوة من أهل الحضر، وليس عن جنس العرب، فالكلام عن طبائع مركوزة مستقرة لا تتغير ليس كلاماً علمياً؛ فكل شعب له خصائص ومزايا ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]. والعرب إذا حسبت مزاياهم فإنهم يتفوقون

على غيرهم في كثير من الصفات (الفردية) ففيهم الذكاء والحيوية والصفات الخلقية العالية، ولكن إذا كان الموضوع يدور حول تأسيس الدول وسياسة الملك التي هم بعيدون عنها كما يذكر ابن خلدون فما هو الشيء الذي يغيرهم ويؤثر فيهم وينقلبون به إلى طبيعة أخرى، ويحصل لهم الملك (الحكم) لا بد أن نعود للبداية، فالعرب قبل الإسلام – وخاصة عرب الشمال – كانوا قبائل متفرقة، ليس لهم دولة، والذين في أطراف الجزيرة كانوا خاضعين للفرس أو الروم، كان المجتمع العربي طاقات معطلة لا يستطيع إنتاج حضارة. كان العربي – رغم مزاياه الشخصية – مشغولاً بأمور دنيوية بسيطة، وفي ثقافته يجري مجرى آبائه ويحيا بالتقليد.

جاء الإسلام وأقام رسول الله ﷺ دولة، وتعلم الصحابة دروس السياسة والإدارة من خلال هذه الدولة، تعلموها ممارسة عملية بعد أن فقهوها علماً. وحتى يستفاد من الدولة لا بد من استقرارها في المكان، واستمرارها في الزمان، والتعبير القرآني عن المدن بـ (القرى) ذو دلالة واضحة؛ فهو مشتق من القرار والاستقرار، وعنه يتولد الأمن والأمل والعمل، والبداوة المترحلة مناقضة لهذا كله، سواء البداوة العربية (الأعراب) أو بداوة العجم؛ ولذلك شجع الإسلام الانتقال من البدو إلى الحضر والاستقرار في القرى والمدن. وكانت الهجرة إلى المدينة واجبة قبل فتح مكة، والمسلم الذي لا يهاجر ليس له من المميزات ما للمسلم المهاجر ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ...﴾ [الأنفال: ٧٢]، ففي الاستقرار تبدأ دورة الحضارة، حضارة التوحيد

والعلم، ونشر الإسلام وهداية الناس «فالبدو الحقيقيون لا ينشئون دولاً، فمن الضروري أن تصبح نسبة معينة من السكان حضرية لكي يمكن الوصول إلى مستوى معين من التنظيم السياسي[1]» «وقد وصف القرآن الكريم الأعراب المشركين بأنهم أشد كفراً ونفاقاً، أي أشد كفراً ونفاقاً من أمثالهم من أهل الحضر، وذلك لبعدهم عن العلم والتهذيب، كما وصفهم بأنهم أجدر بالجهل لأنهم بعيدون عن العلم في الحواضر وليس هذا ناتجاً عن ضعف أفهامهم، أو بلادة أذهانهم، فقد كانوا مضرب الأمثال في قوة الجنان وذرابة اللسان[2]» ولكنها البيئة البدوية. وفي الحديث عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «من سكن البادية جفا[3]» كما أنه لا يجوز للمسلم بعد أن هاجر أن يرجع للبادية كما في قصة سلمة بن الأكوع – رضي الله عنه – عندما دخل على الحجاج فقال له: يا ابن الأكوع: ارتددت على عقبيك وبدوت، قال: لا ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو[4]» فهذا الصحابي يعتذر عن رجوعه إلى البادية بإذن رسول الله ﷺ، ولولا هذا ما أقام فيها. وعن جابر بن عبدالله – رضي الله عنه – أن أعرابياً بايع رسول الله ﷺ على الإسلام. فأصاب الأعرابي وعَكٌ بالمدينة، فجاء الأعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أقلني بيعتي فأبى، ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي، فأبى/ فخرج الأعرابي، فقال رسول الله

---

(١) محمد جابر الأنصاري/ التأزم السياسي عند العرب/ ٤٢.

(٢) رشيد رضا/ تفسير النار ١١/ ٨.

(٣) صحيح سنن النسائي ٣/ ٩٠٢.

(٤) صحيح سنن النسائي ٣/ ٨٧٧.

ﷺ : « إنما المدينة كالكير تنفي خبثها، وتنصع طَيّبها[1] » .

إن القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ لا تذم البدو كأفراد ولكن تذم ظاهرة البداوة لما فيها من القسوة والجفاء، هي نمط عيش قد يتغير وليس ثابتاً، وكلما قرب البدو من الحاضرة كانوا أقرب للمدح، كما مدح رسول الله ﷺ قبائل أسلم وغفار ومزينة التي كانت تعيش ما بين المدينة ومكة، وفي المقابل وصف الرسول ﷺ المغرقين في البداوة بأنهم أهل كِبْر وخُيلاء .

ومن أبرز الشواهد على هذا الاتجاه في الإسلام اتجاه الاستقرار الحضري سواء في الريف أو المدن لتأدية رسالته على أكمل الوجوه تأكيد القرآن على أن جميع الرسل الذين اختارهم الله سبحانه وتعالى هم من أهل الحضر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وذكرت مكة بأنها (أم القرى) ومن فقه عمر – رضي الله عنه – أنه أمر ببناء المدن في العراق والشام ومصر وشمالي أفريقيا، ولا يزال بعضها باقياً إلى اليوم. يقول الدكتور شاكر مصطفى: « إن الحضارة الإسلامية بنت ما بين مشارق الأرض ومغاربها، ما بين أرض الهند وتركستان والأندلس ثلاثمائة مدينة، لا يزال أكثر من ثلثيها مراكز مدنية كبرى وصغرى، وندر في التاريخ أن بنت أمة هذا العدد من المدن[2] » .

---

(١) صحيح سنن النسائي ٣ / ٨٧٦ .

(٢) نقلاً عن محمد جابر الأنصاري: التأزم السياسي عند العرب / ١٣٠ .

الإسلام هو الذي صهر العرب حاضرهم وباديهم في بوتقة واحدة، في ظل قيادة الحاضرة (قريش) وجعلهم أمة تحمل رسالة، والناس الذين لا يحملون رسالة ليسوا أحياء بل (مخلوقات حية) . قد تكون القبيلة العربية على درجة نادرة من الذكاء والفتوة، وعلى درجة عالية من الشجاعة والكرم، ولكن ذكاءها إذا لم يهتدِ بنور الوحي، فستنفقه في مقتضيات العيش .

كان العرب في حالة سكون وتشرذم؛ فإنتاجهم الثقافي كان قليلاً، ولكن الإسلام بتشريعه الخالد الملائم للفطرة، المتجدد دائماً هو الذي نقلهم، وينقل الإنسان من حالات البدائية إلى حالات التحضر والتمدن، فعندما تسيطر على الإنسان أنماط ساذجة من الأساطير والخرافات والامتثال للتقاليد بشكل صارم فإنه يفقد القدرة على الإنتاج . جاء الإسلام ووضع العرب ووضع الناس كلهم في حالة اتزان واعتدال، وقدم لمعتنقيه موازين ليتعرفوا الصواب بشكل دائم، قال تعالى : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١] . وانتقد الإسلام تلك النزعة الجمودية عند العرب (والأعراب خاصة) . قال تعالى حاكياً عنهم : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [يونس: ٧٨] ، ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠] . فالبدوي يعيش كما عاش آباؤه، وهو إذ يقاوم التغيير والتجدد، لا يقاومه عن غباء ولكن لشعوره بأن البداوة حرية وعدم تقيد، وأن كيانه مرتبط بتقاليده .

العرب والإسلام:

عندما يضعف أثر الدين يعود العرب إلى قبيلتهم، يعود إليهم مفهوم (رئيس القبيلة) فرئيس الدولة العربية المعاصرة هو الكل في الكل، هو صاحب المال، وهو الزعيم الأوحد، ويرجع العربي إلى طبيعته السابقة: ردود الفعل السريعة، الحماس القصير هو الذي يدفعه للعمل أكثر مما يدفعه الدوام المتعمق، يحب الأمور السهلة كما قال ابن خلدون: (ومن طبيعة العرب أنهم لا يتغلبون إلا على البسائط، ينهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة، لأن كل مستصعب عليهم تاركوه إلى ما سهل[1]). وهكذا نجد العرب اليوم (الدولة القطرية) يميلون إلى كل ما ينتجه الآخرون فهذا أسهل من إنتاجه داخلياً، والتجارة في البضائع أسهل من تصنيعها، وجلب الأموال من السياحة أسهل من الاعتماد على الزراعة والصناعة، وحتى في أدبهم فإنهم يميلون إلى التزلف السهل أو التهديم السهل (المدح والهجاء) بينما نجد أن الرسول ﷺ اعتمد الصعوبة في الدعوة والمعاناة مع الناس، وتحمل الايذاء، ولم يعتمد (المعجزة) التي تحل كل المشاكل، وفضل التربية الطويلة والتكوين النفسي.

وعندما يضعف أثر الدين يعود العرب إلى التفرق. ودخول الأعداء فيما بينهم يفرقون صفوفهم، كما كان اليهود يفعلون في المدينة، يضربون على وتر العصبية الجاهلية يفرقون بين الأوس والخزرج، ولكن عندما جاءَ الأسلام لم تنجح محاولاتهم في خداع الرسول ﷺ وصحابته، وكان من

---

(١) المقدمة ٢ / ٥١٣ وهو يقصد الأعراب طبعاً.

نتيجة لؤمهم وغدرهم أن أخرجوا من المدينة، وعندما هاجت العصبية العربية في الأندلس كان من نتائجها أن أخرج المسلمون من البلاد التي استقروا بها ثمانية قرون.

عندما ضعف أثر الدين، خرجت شعوب المنطقة العربية بعد الحرب الكونية الأولى وهم من أكثر الشعوب التي أصابها الغبن والظلم من الدولتين الباغيتين: بريطانيا وفرنسا، واستطاع جاسوس محترف (لورنس) أن يتلاعب بمن يسمون أنفسهم زعماء الثورة العربية الكبرى، واستخدم لورنس مئات البدو ليضرب بهم الدولة العثمانية، وانخرط الضباط القوميون في هذا الاتجاه وتحالفوا مع الانكليز لإقامة مشروعهم القومي كما يزعمون فأخفقوا إخفاقاً ذريعاً[1] وخُدعوا بمعسول الكلام من الساسة الإنكليز، كما جاء في رسالة جورج الخامس إلى العرب: «إن حكومة ملك بريطانيا قررت أنه عند انتهاء الحرب ستجعل من بين شرائط الصلح أن تكون شبه جزيرة العرب ترفل في ثياب الحرية، وتعلن الحكومة البريطانية للملأ أنه ليس في نيتها أن تقوم بأعمال حربية ضد بلاد العرب[2]» وبعد كل الخدمات التي قدمها فيصل بن الحسين لبريطانيا أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى كانت جائزته أن منحه الجنرال (اللنبي) شهادة تقدير، فهذا كل ما يستحقه في نظرهم. ومن أمثلة انخداعهم أنهم

---

(١) لا ينكر صلة هؤلاء الضباط والزعماء بالمعسكر الغربي، مما يعتبر خيانة لدينهم وأمتهم، ولكن هناك جانب آخر في المسألة وهي العقلية التي تمارس السياسة بسطحية متناهية.

(٢) شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي ٤ / ٤٨٤.

وضعوا آمالهم بعد الحرب الأولى في مبادئ الرئيس الأمريكي (ويلسون) ومنها حق تقرير المصير للشعوب، ومع ذلك فقد انحاز هذا الرئيس إلى الأوربيين عندما قسموا البلاد العربية بعد مؤتمر باريس « وهكذا مناهم الاستعمار بخلافة تعيد مجدهم، فلما انتصر مزقهم قطعاً، وأصبح العرب الطامعون في الغنيمة غنيمة، وجاءت الحرب الثانية وتجدد الانخداع مع الأسف، وكان جزاؤهم أن نزعت منهم فلسطين[١] » .

عندما يتخلى العرب عن الدين يصبحون سعاة بريد عند قادة الاستعمار كما قام بهذه المهمة الشريف غالب بن مساعد شريف مكة في الصلة التي عقدها مع أمير العساكر الفرنساوية (نابليون) أيام حملته على مصر[٢] وعندما يتخلى العرب عن الدين يصبحون (أُذُناً) لسفراء الدول الكبرى[٣] » . ومما يدعو إلى التأمل أن القرآن الكريم والحديث النبوي يستخدمان في صدد (المعروف) و (المنكر) كلمتي : الأمر والنهي، ولم يستخدما كلمات : الالتماس والطلب، إلى غير ذلك من الكلمات التي تدل على الخضوع وصغر الشأن[٤] » ؛ كما هو واقع اليوم في التوسلات إلى الأمم المتحدة في أخطر قضية من قضاياهم وهي قضية فلسطين، وحين يتنازلون في أمور لم يتصورها العدو ولم يتوقعها، إنهم يحجمون في مقام

---

(١) البشير الإبراهيمي : الأعمال الكاملة ٥ / ٨٠ .

(٢) محمد جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر / ٥٤ .

(٣) انظر : نصيحة السفير الروسي لعبد الناصر بألا يقدم على الضربة الأولى في حرب ١٩٦٧م، وكلام السفيرة الأمريكية لرئيس العراق حين أوحت له بعدم تدخل أمريكا .

(٤) أبو الحسن الندوي : الطريق إلى السعادة والقيادة / ٦٧ .

الإقدام، ويتهورون في مقام التريث، لقد فقدوا الحس السياسي والعمل السياسي. ومن هنا ندرك أسباب هذه الأوضاع المتردية، وهذا التشرذم والاحتراب الداخلي، وتبديد الثروات في سياسات خرقاء جعلت بلاداً مثل الجزائر وليبيا والعراق فقيرة بعد أن كانت من أغنى دول العالم الثالث.

والخلاصة: «أن العرب كانوا مخطئين في جميع ميادين حياتهم السياسية والاجتماعية لما تركوا الإسلام الذي نهض بهم من قبل[1]».

* * *

(١) عمر فروخ: تجديد التاريخ/ ٨.

عسكرة الدولة

محمد علي باشا (نموذجاً)

لماذا برزت حركات كبرى قاومت الغزو الأوروبي في القرن الثالث عشر الهجري (نهاية القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر)، ولماذا نجح الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي في الوقوف أمام دولتين استعماريتين: أسبانيا وفرنسا، وسجل انتصارات على أسبانيا ثم عليهما معاً، وكيف استطاع محمد بن أحمد السوداني أن يتغلب على جيش أكبر دولة استعمارية يومها (بريطانيا) ويهزم (جوردن باشا) مع قلة العدة والعتاد؟ وكيف استطاع تلامذة السنوسية مقاومة الاحتلال الإيطالي والوقوف في وجه الزحف الفرنسي على غرب ووسط أفريقيا؟ ولماذا سجل الشيخ شامل الداغستاني أروع الانتصارات على روسيا القيصرية؟ هذه الحوادث والوقائع كانت متقاربة في الزمن وتفسيرها واضح.

إن الجيل الذي جاهد مع هؤلاء القادة لم يخضع لعملية التغريب، ولم ينهزم نفسياً كما انهزمت الأجيال التالية؛ فلم تزل في هذا الجيل بقية من أنفة ورجولة وشموخ؛ فلما جاء التغريب بطرائقه المختلفة، ومدارسه المتنوعة تخرجت أجيال من السياسيين يعدون أكبر انتصاراتهم أن يرضى عنهم المُستعمِر، وأكبر إنجازاتهم أن يطالبوا العدو والأمم المتحدة بأن يمنحهم شيئاً

من الحرية والاستقلال.

كان الذي تولى حركات المقاومة المنتصرة رجال من أهل العلم والدين لم يخضعوا (للخواجات) ولم يفسد التغريب عقولهم.

بدأ التغريب في مصر، ومصر قلب العالم العربي ومن المراكز الهامة في العالم الإسلامي؛ كان هذا على يد جندي ألباني اسمه محمد علي آغا[1] قدم مصر وكيلاً لرئيس قوة من المطوعة جهزتها الدولة العثمانية لرد الغزاة الفرنسيين، ثم صار (باشا) وتولى حكم مصر. وكانت أولى خطواته الإطاحة بمن رفعوه، فأبعد الزعيم (عمر مكرم) وبدأ بتهميش الأزهر، والاستيلاء على أوقافه[2] مما سبب ضآلة المرتبات، وإحكام السيطرة على المشايخ والقائمين على التعليم في الأزهر، وحتى الكتاتيب أغلقت بسبب تعطل أوقافها، «سقطت مصر خلال ساعات عندما كان أمراء المماليك يتولون الدفاع عنها، فلما برز الأزهر وتحمل مسؤولية قيادة المقاومة لم يبت جيش الاحتلال ليلة واحدة هادئة، فكان لا بد من تغريب المجتمع وتصفية قيادة الأزهر، وهذه هي المهمة التي تولاها بنجاح رجل الغرب وممثل

---

(١) ولد في (قولة) من بلاد اليونان، وكانت تابعة للدولة العثمانية، وكان أمياً، تعلم القراءة في الخامسة والأربعين من عمره، جامل المماليك في مصر فساعدوه، وكانت فوضى بعد الحملة الفرنسية فظنه زعماء الشعب وشيخ الأزهر أنه يضبط البلد، تولى مصر عام ١٢٢٠هـ، وتوفي عام ١٢٦٥هـ - ١٨٤٩م، انظر: الأعلام للزركلي ٦/ ٢٩٨.

(٢) وأكمل الاستيلاء عليها ضباط ثورة ١٩٥٢م، وفعل مثلهم (ثوار) وضباط في بعض البلاد العربية الأخرى.

مصالحه محمد علي باشا[1] » . يقول عنه المؤرخ عبدالعزيز الدوري : « استولى على أراضي الوقف وحاول تكوين فئة ملاكة من أنصاره وضباطه بإعطائهم أراضي واسعة . .[2] » .

وكان من نتائج هذا التغريب أن يأتي مثقف مثل شفيق غربال ليقول عام ١٩٤٤م : « ولا يمكن الشك في أن الفرنسيين لو خلص لهم ملك مصر لحكموها كما ينتظر من حكومة جمهورية قائمة على قواعد الثورة الفرنسية ، لو خلص لهم حكم مصر لبذلوا جهداً كبيراً في تنمية الموارد بتنظيم الري وضبط النيل . .[3] » ومن نتائج هذا التغريب أن يدعو الشيخ رفاعه الطهطاوي لاستعمال العامية ، يقول : « إن اللغة المتداولة لا مانع أن لها قواعد قريبة المأخذ ، ليتعارفها أهل الإقليم وتصنف فيها الكتب » جاء ذلك في كتابه : (أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل[4]) وهذه دعوة خبيثة ربما لم يدرك الطهطاوي مدى خطورتها ، وهو متأثر بما رأى في بلاد الفرنسيين وبما دبر وقدر أحد مستشاري محمد علي باشا (جومار) الفرنسي المشرف على البعثات التعليمية والذي يقول في تعليقه على نتائج امتحان البعثة الثالثة إلى فرنسا : « يظهر من فحوى كتاباتهم أنهم قبل أن يكتبوا يفكرون بعقل غربي لا بعقل عربي ؛ فمن

---

(١) محمد جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر / ١٧ .

(٢) التكوين التاريخي للأمة العربية / ١٢٦ .

(٣) شفيق غربال : محمد علي الكبير / ١٧ .

(٤) محمود محمد شاكر : أباطيل وأسمار / ١٥٩ /

المنتظر أن الخرافات الشرقية ستنمحي من عقولهم» وفي كلمة لهؤلاء الطلبة عام ١٨٢٨م: «إنكم منتدبون لتجديد وطنكم التجديد الذي سيكون سبباً في تجديد الشرق بأسره، أمامكم مناهل العلم فاغترفوا منها، اقتبسوا من فرنسا نور العقل» وما سماه جومار الخرافة إنما يعني به الإسلام، فهي عملية اختراق أوروبي للعقل الشرقي المتخلف بنظرهم، والأمثلة على التغريب كثيرة جداً وليس آخرها «تقريب محمد علي باشا لليهود النصارى والأرمن وتبوُّؤهم مراكز عليا ودخولهم إلى مصر بالترحاب[١]».

أما مشروع محمد علي التحديثي وهو نقل التقنية الغربية والعلوم الحديثة. وتنشيط الزراعة والصناعة، وإرسال البعثات العلمية إلى أوروبا، وهو الذي يدندن حوله كثير من الكتاب ويمدحون محمد علي ويعتبرونه مؤسس مصر (الحديثة) هذا المشروع كان مسخراً لخدمة مؤسسة واحدة هي مؤسسة الجيش، كان لعسكرة الدولة ولم يكن مشروعاً متكاملاً لنهضة زراعية صناعية كما وقع في اليابان، فهو لم يساهم في تنمية المجتمع، وحتى المدارس التي أنشأها كانت لفئة معينة من الطلبة (جركس، أرناؤود، يونان، أرمن..) كان همه الأول: كيف يكون قوياً، يتسلط على الناس، ويسيطر على البلدان المجاورة، والذين ساعدوه على هذا التحديث من الغربيين أرادوا إيجاد قوة تساعد على تفكيك الدولة العثمانية؛ فلما زادت هذه القوة عن حدها أرجعوها إلى حجمها الأول. جاء هذا التحديث على حساب المجتمع المصري، فقد فرض (الباشا) نظام

---

(١) إلبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة/ ٧٤.

السخرة، ونهب الأموال من الفلاحين. يتحدث المؤرخ الجبرتي عن عودة الباشا من رحلة إلى جنوب مصر: «وبعد وصول الباشا بثلاثة أيام، وصلت طوائف العسكر وعظماؤهم، ومعهم المنهوبات من الغلال والأغنام والفحم والحطب، وأنواع التمر وغير ذلك، حتى أخشاب الدور وأبوابها..[1]» وينهب الباشا الغلال ليبيعها للإفرنج في ميناء الإسكندرية؛ لأن من طبعه الحسد والشره والتطلع لما في أيدي الناس كما يصفه الجبرتي «وسافر الباشا إلى الإسكندرية لبيع الغلال التي جمعها من البلاد من الفرض التي فرضت عليهم، ليبيعها للإفرنج، وهو لم يشترها، بل أخذها من زراعات الفلاحين ظلماً[2]» وأما حفر الترعة الموصلة إلى الإسكندرية فقد مات كثير من الفلاحين من البرد والتعب[3]» ويصف لنا الجبرتي صورة ساخرة مؤلمة من ظلم محمد علي وعساكره يأتون بالرجل ويقولون: عليك مال الطين (الأرض) فيقول: وأي شيء الطين؟ فيقولون: طين فلاحتك من مدة سنين لم تدفعه، فيقول: لا أعرف ذلك ولا أعرف البلد ولا رأيتها، فيقولون: ألست الشبراوي أو المنياوي (من أهل هذه القرى)، فيقول: هذه نسبة قديمة سرت إليّ من عمي أو خالي، فلا يقبل منه، ويحبس ويضرب حتى يدفع المال[4]» أي يجب أن يدفع مالاً فقط؛ لأنه ينسب إلى قرية من القرى؛ فهل يقوم تحديث على هذا الظلم وعلى أمثال

---

(١) عجائب الآثار ٣/ ٢٧٦.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣١٤.

(٣) المصدر السابق ٣/ ٦٠١.

(٤) المصدر السابق ٣/ ٢٤١.

هؤلاء الجنود الجهلة، بل يذكر الشيخ الجبرتي عن العسكر «أشياء يستحي الإنسان من ذكرها، حتى خربت القرى وافتقر أهلها[1]».

نعم! شيد الباشا المصانع، وفتح الترع، ولكنه احتكر الصناعة، وكان يجمع كل ما يقوم به أصحاب المصانع الصغيرة ويدفع لهم الثمن كما يفرضه[2] وأرسل البعثات لإيجاد الفنيين الذين يساهمون في مشروعه الخاص. وسوف تقلده الحكومات العسكرية الديكتاتورية، وتنفق أموال الأمة على الجيش الذي لم يحارب عدواً، وعلى تكديس الأسلحة التي لا تستعمل، وسوف يسخر هؤلاء الحكام كل إمكانيات بلادهم المالية والعلمية للصناعة العسكرية (ولا نتكلم هنا عن الفساد السياسي والأخلاقي والبعد عن الدين) ويعود الغرب مرة ثانية لينهي هذه الصناعة العسكرية، فربما يمتلكها في المستقبل حاكم يستخدمها ضد العدو الحقيقي وتكون قوة للمسلمين.

أثبت جيش محمد علي كفاءة عالية عندما طُلِبَ منه ضرب الدولة السعودية الأولى، وضرب الدعوة السلفية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، فقد ارتاعت الدول الاستعمارية كما ارتاعت الدولة العثمانية من هذه الحركة التجديدية، فعهدت بالمهمة إلى محمد علي، فجهز الحملات بقيادة ابنه إبراهيم باشا انتهت بانتصار القوات المصرية، وهدمت (الدرعية) عاصمة نجد.

---

(١) عجائب الآثار ٣/ ٢٠٨.

(٢) شفيق غربال: محمد علي الكبير/ ١٠٥.

كما أثبت جيش محمد علي كفاءة عالية بقيادة ابنه إبراهيم في احتلال بلاد الشام حيث مارس الابن أسلوب والده في الظلم والتغريب. يقول الشيخ عبد الرزاق البيطار في ترجمة إبراهيم باشا: «غشوم ظالم، محتوٍ على الفساد، مجبول على الغلظة والقساوة، وعندما تمكن من البلاد الشامية قهر الناس، واستباح الحرام، وفعل جميع الموبقات والآثام، وفرض على كل فرد من البالغين مالاً يؤخذ منه في كل سنة، واستولى العسكر على أكثر المساجد والمدارس، ومنعوا المصلين من دخولها...[1]».

وبعد احتلال الشام استمر إبراهيم في الزحف على الدولة العثمانية في عقر دارها ووصل إلى (قونية) فوقفت الدول الكبرى مع الدولة العثمانية وأرجعت محمد علي إلى مصر[2] واشترط أن تكون مصر ولاية له ولذريته من بعده، ورضي من الغنيمة بالإياب. إن التلاقي بين مشروع محمد علي وأهداف الأوربيين لإضعاف الدولة العثمانية يجب أن يقف عند حد معين، ولا يسمح الأوربيون لقوة ناشئة قد يستفيد منها المسلمون في المستقبل أن تستمر وتقوى، وقد نفذ محمد علي هذه الرغبة للأوربيين «ثم عدل عن الاستمرار في منشآته الصناعية بعد إنقاص جيشه ومحو أسطوله[3]».

---

(١) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ١/ ١٥.

(٢) لأهداف سوف تستفيد منها.

(٣) شفيق غربال: محمد علي الكبير/ ١٠٧.

إن تحديث محمد علي (ومن يشابهه من الحكام المعاصرين) لم يكن منبثقاً عن مبادئ عليا أو عقيدة دينية، وإنما كانت لتدعيم مركزه وتقوية نفوذه، والذين يظنون أن التحديث إنما يكون بالتقدم المادي جعلوا من محمد علي بطلاً وأنه أحيا مصر بعد مواتها « ولكن ما بال هذه الحياة لم تصدر عنها آثار الإحياء في الأخلاق الفاضلة والأعمال النافعة، ووحدة الأمة واستقلال الحكومة؟ ألم ترتق أمة اليابان بعد الأخذ بعلوم أوروبا بخمس وعشرين سنة؟ فما بال الأمة المصرية لم ترتق بعد عشرات من السنين؟ وما بال الأمير (حفيد محمد علي) عند أول نبأة من الأمة في طلب الاستقلال استغاث بدولة إنكلترا لتنقذه من الأمة . . .[1] » .

نعم أقام محمد علي مشاريع، ولكن أحفاده الذين تربعوا على عرش مصر أنفقوا الأموال لغير مصالح الشعب، أنفقوها على الفساد والملاهي وقبل حكم محمد علي وأسرته لم تستطع الحملة الفرنسية الاستمرار في احتلال مصر، للمقاومة الكبيرة التي واجهتها من قبل الشعب ومن قبل الأزهر، ولكن بعد نصف قرن كان الطريق مفتوحاً أمام الاحتلال الإنكليزي « لأن طغيان هذه الأسرة قد حطم كبرياء الشعب وروحه المعنوية[2] » .

* * *

(١) رشيد رضا : المنار / المجلد السابع .

(٢) سيد قطب : مجلة الرسالة العدد ١٠٠١ تاريخ ٨ / ٩ / ١٩٥٢م .

الإمام الجويني[1]

وكتابه (غياث الأمم)

تمهيد:

لم تكن موضوعات السياسة الشرعية غائبة عن نظر علماء المسلمين في العصور الأولى، وإن لم يدونوها في كتاب مستقل، فالدولة الإسلامية التي أسسها رسول الله ﷺ لم تنقطع بوفاته، وهي دولة بكل ما تعني الكلمة من مدلولات، وقد تحدث القرآن الكريم طويلاً عن العدل والظلم، والشورى والتمكين. قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ

---

(١) هو أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني الطائي العربي الفقيه الشافعي المعروف بـ (إمام الحرمين). ولد في نيسابور عام (٤١٩) هـ وتخرج على علمائها. والده أبو محمد إمام أهل نيسابور. خرج أبو المعالي إلى الحجاز وجاور أربع سنين، ثم عاد إلى نيسابور في ولاية السلطان السلجوقي (ألب أرسلان) ووزيره يومئذ نظام الملك المشهور بحبه للعلم والعلماء، وهو الذي أسس المدارس النظامية، وقد تولى الجويني التدريس بنظامية نيسابور مع مجلس الوعظ والخطبة، ومن تصانيفه: البرهان، العقيدة النظامية، الشامل، غياث الأمم... وتوفي عام ٤٧٨هـ، قال الذهبي في ترجمته: الإمام الكبير شيخ الشافعية، يدافع ويتأول للمذهب الأشعري، وقد كان هذا الإمام مع فرط ذكائه وإمامته في الفروع وقوة مناظرته، لا يدري الحديث كما يليق به، وله مسائل وهفوات هجر عليها، وقد جاور وتعبد وتاب ولله الحمد منها، كما أنه في الآخر رجع مذهب السلف في الصفات انظر: سير أعلام النبلاء ١٨ / ٤٦٨.

مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ [النساء: ٥٤] والمقصود بـ (الناس) هنا: المسلمون؛ وقد حسدهم اليهود على ما آتاهم الله من التمكين.

كما دوَّن علماء الحديث الآثار المروية عن الرسول ﷺ حول الإمرة والأمير، وقد كُتب مبكراً عن (الخراج)[1] و (الأموال)[2] وعلاقات السلم والقتال، والعلاقات الدولية في كتب (السير)[3]، وأما ما كتب عن تدبير الممالك ونصائح الملوك، فهي جمع من حِكَم الفرس أو الهند، ولا تعبر عن السياسات الشرعية، ثم جاء أبو الحسن الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠) وكتب (الأحكام السلطانية) مؤصلاً لقضية الخلافة والحكم، وشروط الإمام ووظائف الدولة، ولكنه كتب تحت ضغط الواقع، محاولاً ترقيع هذا الواقع وتسويغه، مثل كلامه عن أمارة الاستيلاء، وشروط الوزارة وولاية العهد، ثم جاء الإمام الجويني وكتب (غياث الأمم في التياث الظلم) فكان أكثر أصالة، غير متأثر بمناهج وآراء الأمم الأخرى، وغير متأثر بآراء الفلاسفة أو المتكلمين[4]. وتتابعت الكتابات في هذا الموضوع - على قلتها - ومن أهمها ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية في

---

(١) انظر: الخراج لأبي يوسف تلميذ أبي حنيفة (١١٣ - ١٨٢) هـ.

(٢) انظر: الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام (١٥٧ - ٢٢٤) هـ.

(٣) انظر: السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني (١٣١ - ١٨٩) هـ.

(٤) قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في هامش سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٧٥: «يعد هذا الكتاب العظيم مثلاً لأصالة الفقه السياسي الإسلامي، وبعده عن التأثر بالفلسفات الأخرى، ويعده الباحثون أحسن منهجاً من كتاب (الماوردي) الأحكام السلطانية».

(السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية) وقد التفت فيه إلى التأصيل الشرعي وإلى الناحية العملية مبتعداً عن التشقيق والتنظير. ولكن كتاب الجويني يبقى متميزاً؛ لأنه بعد أن أصَّل لموضوع الحكم ووظائف الدولة . . . افترض حالتين يمكن أن تقعا للأمة الإسلامية: حالة عدم وجود إمام للمسلمين، والثانية: عدم وجود الأئمة المجتهدين أو المفتين الموثوقين، فكيف يكون حال المسلمين، وكيف يتصرفون؟ ولم يكن – رحمه الله – ممن يفترض الافتراضات الخيالية ليضع لها الحلول أو يمارس رياضة ذهنية، بل كانت التجربة والملاحظة والنظر في واقع المسلمين في عصره، يقول: إني وضعت هذا الكتاب لأمر عظيم، فإني تخيلت الشريعة وانقراض حملتها، وعاينت في عهدي الأئمة[1] ينقرضون ولا يُخلفون، والمتسمون بالطلب يرضَوْن بالاستطراف[2]، وغاية مطلبهم مسائل خلافية يباهون بها[3]».

وإذا كانت الخيرية في الأمة لا تنقطع، وحديث «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق . .» يؤكد ذلك فإن افتراض إمام الحرمين قد ينطبق على بعض الأصقاع أو على ضعف العلم بشكل عام، خاصة ونحن نرى

---

(١) يعني أئمة العلم.

(٢) أي الذين يسمون أنفسهم طلبة علم وهذا نقد شديد من الجويني لهذا النوع من طلبة العلم وطرق تلقين العلم.

(٣) الغياثي/ ٥٢١ تحقيق د. عبد العظيم الديب وهي النشرة التي اعتمدت عليها في الإحالة، وقد استفدت من المقدمة الضافية التي كتبها الدكتور الديب حول إمام الحرمين وكتابه.

كما لاحظ هو انقراض العلماء ولا يخلفهم أحد، وحين نرى من يسمون أنفسهم (طلبة علم) إنما يقنعون باليسير، ويحفظون المسائل للردود والجدل، ولا يتعمقون في فهم التشريع. ولهذا سمى كتابه (غياث الأمم) فهو من الكتب النادرة في تراثنا الإسلامي، وهو كفقيه وأصولي يعلم أن موضوع الحكم والرئاسة فيه مجال للاجتهاد وليست أموره كلها قطعية، وهذا ما أخذه على سلفه الماوردي «قد كثر في أبواب الإمامة الخبط والتخليط، والإفراط والتفريط، والسبب الظاهر في ذلك أن معظم الخائضين في هذا الفن يبغون مسلك القطع في مجال الظن»[1].

ومما يبين عن أصالة منهجه عدم ميله إلى المصنفات التي تسرد الأقوال ولا تأتي بجديد، وكأنه كان يعاني من المقلدين الجامدين «ولست أحاذر إثبات حكم لم يدونه الفقهاء ولم يتعرض له العلماء، ولكني لا أبتدع، ولا أخترع شيئاً بل ألاحظ وضع الشرع، وهكذا سبيل التصرف في الوقائع المستجدة[2].

وصف الجويني كتابه بأنه «مجموع يجمع أحكام الله تعالى في الزعامة[3]» وهكذا وصف ابن تيمية رسالته في السياسة الشرعية «جوامع من السياسة الإلهية والآيات النبوية[4]».

---

(١) الغياثي/ ٥٩.

(٢) المصدر السابق/ ٢٦٦.

(٣) المصدر السابق/ ١٤.

(٤) الفتاوى ٢٨/ ٢٤٥.

أقسام كتاب الغياثي:

قسم الإمام الجويني كتابه إلى ثلاثة أركان:

الركن الأول:

وهو الذي يتعلق بالإمامة ووجوبها، والجهة التي تعين الإمام... وهذا الركن مقدمة للركن الثاني، ويصرح المؤلف أكثر من مرة بأن المقصود هو الركن الثالث وهو: (**ايضاح متعلق العباد عند عُرُوِّ البلاد عن المفتين المستجمعين لشرائط الاجتهاد**) وقد أطال النَّفَس في الركن الأول مع أنه تقدمة وتمهيد، فتكلم عن وجوب الإمامة شرعاً، وأنها بالاختيار لا بالنص، وطبيعة منصب الإمامة أو الخلافة «فالإمام مستناب في تنفيذ الأحكام، وهو في التزام الأحكام كواحد من الأنام[1]» والحاكم حقاً هو الله سبحانه وتعالى (ولا حكم مع قيام الإمام إلا للمليك العلام) فالحاكم أجير عند الأمة كما وصفه أحد الصحابة، وفي الفصل الذي عقده لصفات الذين يختارون الإمام (أهل الحل والعقد) ذكر: البصر بالسياسة والفتوى... وأما عددهم فلم يهتم بهذا الأمر، بل خالف رأي الأشعري والباقلاني عندما قررا أن الواحد يكفي لعقد الإمامة، والرأي عند الجويني أن أي عدد فيهم منعة وشوكة يستطيع بها الإمام أن يقيم أمور الدين والدنيا فهذا هو المطلوب، وهذا ما وافقه عليه ابن تيمية عندما رأى أن المطلوب إقامة الولاية والتمكين من تطبيق شرع الله، ومن المواضع الرئيسية

---

(١) الغياثي/ ٢٧٦.

في هذا القسم: الصفات المطلوبة في الإمام؛ فهناك صفات متفق عليها مثل سلامة الحواس والإسلام والذكورة والحرية.. ولكن الجويني يركز على صفتين مهتمين لا بد منهما:

١ – العلم: «فالشرط أن يكون الإمام مجتهداً مستجمعاً صفات المفتين، فالإمامة زعامة في الدين والدنيا[١]» ومع أنه وصل إلى رتبة الاجتهاد، ولكن هذا لا يمنع من الاستشارة في آحاد الوقائع «فإن صاحب الاستبداد لا يأمن الحيد عن سنن السداد[٢]» ومن الواضح أن الشورى غير ملزمة للإمام برأي الجويني، بل نستطيع أن نقول إن هذا الموضوع (الشورى) لم يأخذ حقه من البحث والدرس والتأصيل والتفريع عند علماء المسلمين قديماً، وربما كان ذلك لضغط الواقع والأخطار الخارجية، فكانت التوجيهات تكتفي من الحاكم بأن لا بد له من الاستشارة ثم يتخير الأفضل، وحتى إذا وافقنا الجويني بأن الإمام المجتهد تكفيه الاستشارة، فمن أين نجد الإمام المجتهد؟ ولم يتحقق ذلك عملياً بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز. وقد ناقش المعاصرون هذه القضية، ويرى أكثرهم أن الشورى ملزمة للحاكم المسلم بشرائطها وضوابطها الشرعية[٣].

---

(١) المصدر السابق/ ٨٥.

(٢) السابق/ ٨٧.

(٣) انظر: رشيد رضا: الخلافة. عبد الرحمن عبد الخالق: الشورى. د. توفيق الشاوي: فقه الشورى والاستشارة. الدكتور عدنان النحوي: الشورى. وغيرهم.

٢ – التقوى والورع: وهذه الصفة يعطيها الجويني أهمية بالغة؛ إذ لا يوثق بفاسق في الشهادة على فلس، فكيف يولى أمور المسلمين كافة، والأب الفاسق مع فرط حدبه وإشفاقه على ولده لا يعتمد في مال ولده؛ فكيف يؤتمن في الإمامة العظمى فاسق[١]».

ولننتقل إلى فصل مهم وهو واجبات الإمام أو الدولة المسلمة «فالغرض الكلي: استيفاء قواعد الإسلام طوعاً أو كرهاً، والمقصد: الدين، ولكنه لما استمد استمراره من الدنيا كانت هذه القضية مرعية[٢]». وأهم واجب هو حفظ أصل الدين «جمع عامة الخلق على مذاهب السلف السابقين، قبل أن نبغت الأهواء وزاغت الآراء[٣]» ومن حفظ الدين: السعي في دعاء الكافرين إليه بالبراهين الواضحة، والحجج اللائحة، فإن نجع وإلا ترقى إلى القوة والعدة، ومن الواجبات الرئيسية إقامة الحدود حتى يأمن الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم» فالأمن والعافية قاعدتا النعم كلها ولا يهنأ بشيء منها دونها[٤]».

ولا بد من الإشارة هنا إلى اهتمام إمام الحرمين بقضية الفقراء اهتماماً بالغاً، فإن لم تف الزكوات بحاجاتهم «فحق على الإمام أن يجعل الاعتناء بهم من أهم أمر في باله؛ فالدنيا بحذافيرها لا تعدل ضرر فقير من فقراء

---

(١) الغياثي/ ٨٨.

(٢) المصدر السابق/ ١٨٣.

(٣) المصدر السابق/ ١٩٠.

(٤) المصدر السابق/ ٢١٢.

المسلمين في ضُرٍّ، فإن لم يبلغهم نظر الإمام، وجب على ذوي اليسار البدار إلى دفع الضرار عنهم، وإن ضاع فقير بين ظهراني موسرين حرجوا من عند آخرهم وباؤوا أعظم المآثم..[1]».

وقبل أن نغادر هذا الركن المتعلق بالإمامة، لا بد من ذكر شيئين عرجّ عليها إمام الحرمين: الأول في معرض حديثه عن التعزيرات الشرعية حيث ذكر ما يقوم به بعض الحكام من زيادة العقوبات على ما هو مقرر في الشرع، لردع الناس ويسمونه (سياسة) وقد عارض الجويني بشدة هذا الاتجاه أو من يماثله في التسويغ للحكام في الخروج عما قرره الشارع فيقول: «وهذا الفن قد يستهين به الأغبياء، وهو في الحقيقة مضاد لما ابتعث به سيد الأنبياء، وما أقرب هذا المسلك من عقد من يتخذ سنن الأكاسرة والملوك المنقرضين عمدة الدين، ومن تشبّث بهذا، فقد انسل عن ربقة الدين انسلال الشعرة من العجين[2]» والثاني: عندما عرض لموضوع تولية العهد، فقد أقرّه واستند لحادثة تولية أبي بكر لعمر، والحقيقة أن أبا بكر لم يولِّ عمر من عند نفسه، وإنما استشار كبار الصحابة فوافقوه على رأيه. وقد أخرج ابن عساكر أن أبا بكر أشرف على الناس فقال: أترضون بمن عهدت إليه؟ فقال الناس: رضينا[3]، ومع ذلك فإن الجويني يعني مثال أبي بكر وهو أن يولي الخليفة رجلاً أهلاً للخلافة من بعده «ولم

---

(١) الغياثي/ ٢٣٤.

(٢) المصدر السابق/ ٢٢٠ - ٢٢٢.

(٣) المصدر السابق/ ١٤٠.

أر التمسك بما جرى من العهود من الخلفاء لبنيهم، لأن الخلافة بعد منقرض الأربعة الراشدين شابتها شوائب الاستيلاء والاستعلاء وأضحى الحق المحض في الإمامة مرفوضاً، وصارت الإمامة ملكاً عضوضاً[1]».

الركن الثاني:

كان المؤلف – رحمه الله – قد تكلم في الركن الأول عن الحالة التي يكون فيها الإمام مستجمعاً للصفات المرعية وبويع من قِبَل أهل الحل والعقد، ثم طرأ عليه الفسق: هل ينعزل؟ وكان ملخص جوابه: أنه لا ينعزل بمجرد الفسق إذا كانت أخطاء وهنات، وأما «إذا تواصل منه العصيان وفشا منه العدوان، واستجرأ الظلمة، وتداعى الخلل إلى تعطيل الثغور، فلا بد من استدراك هذا الأمر المتفاقم[2]» فهذا إن عسر القبض على يده (عزله) لاستعداده بالشوكة والعدد والعدة، فيجب الصبر حتى يجعل الله فرجاً، وأما إذا كانت مفسدة دفعه وعزله قليلة بجانب الخير الكثير الذي يترتب على مجيء غيره، فليقدم أهل الحل والعقد على عزله. ولكن المؤلف يفترض في الركن الثاني أن بعض الصفات قد انخرمت أصلاً، فهل نتساهل ونقبل بالصفات المتبقية، ثم إذا استولى حاكم بالقوة وفيه كفاية، فهل نقبل به؟ وإذا لم يوجد صاحب الكفاية أو العلم والتقوى فما العمل؟ هذه هي الأسئلة التي أجاب عنها إمام الحرمين، فإذا لم نجد قرشياً، نصبنا من وجدناه عالماً كافياً ورعاً، وإذا فُقدت رتبة العلم

---

(١) الغياثي/ ١٣٩.

(٢) المصدر السابق/ ١٠٦.

(وصادفنا شهماً ذا نجدة وكفاية، ويستفتي العلماء فيما يعنُّ له من مشكلات[1] » فيتعين نصبه، فإن لم نجد كافياً ورعاً ووجدنا كافياً يقع في الموبقات ولكنه حريص على الذبِّ عن حوزة الإسلام، مهتماً بالصلاح العام (فالظاهر عندي نصبه مع القيام بتقويم أوده على أقصى الإمكان[2] » . وأما إذا كان صاحب مجون، جريء على المنكرات، فهذا لا سبيل إلى نصبه، فإنه إذا تقوَّى بالعدد والعدة كانت قوته ذريعة للفساد في الداخل (ضد الأمة) هذا كله إذا فقد بعض الصفات وهناك من يعقد له . والسؤال : كيف إذا ظهر مستولٍ، مستعدٌّ بالشوكة، وأخذ الحكم بالقوة، وليس عن طريق الاختيار والعقد؟ والجواب عند الجويني : « إذا كان صالحاً للإمامة على كمال شرائطها فهو إمام (في حكم العاقد والمعقود له) وأما إذا استولى كافٍ ذو استقلال ولكنه غير مستوف للصفات، فهذا إن لم يوجد غيره تعين قبوله، لأنه كمن يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خاصة إذا قام بالذبِّ عن بيضة الإسلام وحوزته، ويجب عليه مراجعة العلماء فيما يأتي ويذر فإنهم قدوة الأحكام، وأعلام الإسلام وورثة النبوة وقادة الأمة، وهم على الحقيقة أصحاب الأمر استحقاقاً وذوو النجدة (أي السلطان) مأمورون بارتسام مراسمهم[3] » « وإذا كان سلطان الزمان لا يبلغ مبلغ الاجتهاد فالمتبوعون العلماء، والسلطان مع العالم

---

(١) الغياثي / ٣١٠ .

(٢) المصدر السابق / ٣١٢ .

(٣) المصدر السابق / ٣٧٩ .

كملك في زمان نبي[1] » .

وهنا ينبه الشيخ إلى أهمية فروض الكفايات في مثل هذه الأوقات، وذلك لعموم نفعها، ولذلك طلب من (نظام الملك) وزير السلاجقة أن يستكمل مهمته في إصلاح حال المسلمين حتى إذا استقرت الأمور قام بفرض الحج، ويرد على من يقول : إن الله يحفظ دينه، وليذهب نظام الملك متوكلاً على الله، يقول : « كلمة حق أريد بها باطل، ولو حكمنا مساق هذه الطامات لجرتنا إلى تعطيل القربات، فمضمون ما بلغه المرسلون أسباب الخير، واجتناب الضَّيْر، والأمور كلها موكولة إلى حكم الله ولكن الموفق لمدرك الرشاد، من يقوم بما كُلفّه من الأسباب[2] » .

وهنا لنا وقفة مع إمام الحرمين وغيره ممن كتبوا حول إمارة الاستيلاء أو التغلب حين ينهض رجل ويستولي على الحكم ويضع العلماء والأمة تحت الأمر الواقع، فإذا كانت هذه الحالة مقبولة وتستثنى أحياناً لضرورة وحدة الأمة، أو الوقوف في وجه الأخطار الخارجية وهذا ما يسوغه من كتبوا في السياسة الشرعية أقول : إذا كانت هذه حالة استثنائية والجويني نفسه يتكلم فيها على حذر، ويشترط الصفات والمؤهلات؛ إلا أن هذا التغلب طال أمده على الأمة الإسلامية، وأصبح هو الأصل، وكأنه هو الذي مهّد لقبول الناس بانقلابات العساكر في العصر الحديث، التي أتت على ما تبقى من مذخورات الأمة . يقول الشيخ رشيد رضا : « وما أفسد على هذه الأمة

---

(١) الغياثي / ٣٨٠ .

(٢) المصدر السابق / ٣٦٧ .

أمرها إلا جعل طاعة هؤلاء الجبارين واجبة على الإطلاق، وجعل التغلب أمراً شرعياً كمبايعة أهل الاختيار من أولي الأمر وأهل الحل والعقد[١]».

والسؤال الثالث: من افتراضات الجويني: إذا شغر الزمان عن وال بنفسه أو مُتَوَلٍّ بغيره، وإن كان يستبعد هذا الفرض ولكنه يقدره، وخاصة إذا كان ذو الكفاية مضطهداً مهضوماً؟ فيقول: «وقد قال بعض العلماء: لو خلا الزمان عن السلطان فحق على قُطّان كل بلدة، وسكان كل قرية، أن يقدموا من ذوي الأحلام والنُّهَى من يلتزمون امتثال إشاراته وأوامره[٢]». ثم يتابع: «إذا شغر الزمان عن إمام، فالأمور موكولة إلى العلماء..[٣]» وإذا قيل هنا، لماذا هذا التطويل، هلاّ جزمت بأن العالم هو الوالي، وحق على ذي النجدة اتباعه؟ ويجيب: «إن كان العالم ذا كفاية وهداية إلى عظائم الأمور، فحق على ذي الكفاية العريّ عن رتبة الاجتهاد أن يتبعه..[٤]».

الركن الثالث:

وهو الركن الأهم في الكتاب؛ لأنه «يستدعي نخل الشريعة من مطلعها إلى مقطعها، وإنعام النظر في أصولها وفروعها، وسبب اتفاق العلماء، وعلة اختلافها..[٥]» وفي التقديم لهذا الركن ذكر صفة المستفتين

---

(١) الخلافة/ ٥١.

(٢) الغياثي/ ٣٨٧.

(٣) المصدر السابق/ ٣٩١.

(٤) المصدر السابق/ ٣٩٢.

(٥) المصدر السابق/ ٣٩٧.

والمفتين، ثم أحال التفاصيل إلى كتب أصول الفقه، وذكر قاعدة للمستفتي الذي يتعين عليه ضرب من النظر في تعيين المفتي الذي يقلده ويعتمده، وليس له أن يراجع كل متلقب بالعلم فقال: «والذي أراه أن من ظهر ورعه من العلماء، وبَعُد عن مظانّ التهم، فيجوز للمستفتين اعتماد قوله إذا ذكر أنه من أهل الفتوى[1]».

وفي الفصل الثاني افترض الجويني خلو الزمان عن المجتهدين، وهنا أيضاً يفترض بمن يحمل رتبة دون المجتهد أن يكون مرموقاً في الفقه ولا يكتفي بنقل المسائل وحفظها.

ثم ينتقل إلى المرتبة الثالثة وهي: خلو الزمان عن المفتين ونَقَلة المذاهب، ويصور هذه المرتبة بأن القواعد الشرعية محفوظة وإنما «تعتاص التفاصيل والتقاسيم والتفريع، ولا يجد المستفتي من يقضي على حكم الله في الواقعة على التعيين..[2]». وبعد أن يؤكد أنه لا تخلو واقعة عن حكم الله تعالى، وينتقد بعض علماء الشافعية الذين لا يستبعدون تقدير واقعة ليس في الشريعة حكم لله فيها، وهنا وفي مثل هذه الأحوال يضع الشيخ قاعدة يرجع الناس إليها، أو يرجع مَنْ عنده الحد الأدنى من العلم ليساعد الناس في حل مشكلاتهم، يقول: «وذلك أن قواعد الشريعة متقابلة بين النفي والإثبات، والأمر والنهي، والإطلاق والحجر، والإباحة والحظر، ولا يتقابل قط أصلان إلا ويتطرق الضبط إلى أحدهما، وتنتفي النهاية عن

---

(١) الغياثي/ ٤٠٨.

(٢) المصدر السابق/ ٤٢٩.

مقابله ومناقضه[1] » .

هذه هي القاعدة، وضرب لذلك مثلاً : « ما يحكم الشارع بنجاسته ينحصر نصاً واستنباطاً، وما لا يحكم الشرع بنجاسته لا نهاية له في ضبطنا، فسبيل المجتهد أن يطلب ما يُسأل عن نجاسته وطهارته من القسم المنحصر فإن لم يجده منصوصاً فيه، ولا ملتحقاً به بالمسلك المضبوط المعروف ألحقه بمقابل القسم ومناقضه وحكم بطهارته[2] » . وهذا المسلك يطّرد في جميع قواعد الشريعة، ومنه ينبسط حكم الله تعالى على ما لا نهاية له . ثم ذكر أمثلة وتفاصيل في قضايا الطهارة والصلاة والصوم، ولا بأس بذكر ما كتبه حول المكاسب، وخاصة أن الشيخ يعتقد أنه كتب حول هذا الموضوع فصلاً نفيساً، لم يَحُمْ على المدرك السديد فيه أحد من الأصحاب، يقول : « لو فسدت المكاسب كلها، وطبّق طبق الأرض الحرام في المطاعم والملابس وما تحويه الأيدي – وليس حكم زماننا ببعيد من هذا[3] ؛ فلا سبيل إلى حمل الخلق – والحالة هذه – على الانكفاف عن الأقوات، والتعري عن البزّة، ونحن على اضطرار من عقولنا نعلم أن الشرع لم يرد بما يؤدي إلى بوار أهل الدنيا، ثم يتبعها اندراس الدين؛ **فالقول المجمل في ذلك** : أن الحرام إذا طبّقَ الزمانَ وأهله، ولم يجدوا إلى طلب الحلال سبيلاً، فلهم أن يأخذوا منه قدر الحاجة، ولا تشترط الضرورة التي

---

(١) الغياثي / ٤٣٣ .

(٢) المصدر السابق / ٤٣٣ .

(٣) هذا في زمن الشيخ، فكيف في زماننا؟!

نرعاها في إحلال الميتة في حقوق آحاد الناس . . .[1] » . ثم يفترض سائلاً يسأل : ماذا تقصد بعموم الحرام؟ ويجيب : « إذا استولى الظلمة، وتهجّم على أموال الناس الغاشمون، ومدوا أيديهم اعتداء إلى أملاكهم، ثم فرقوها في الخلق وبثوها، وفسدت مع ذلك الساعات، وحادت عن سفن الشرع المعاملات . . .[2] » .

وفي المرتبة الرابعة : يفترض خلو الزمان عن أصول الشريعة، وذكر أن بعض العلماء يستبعدونه، وقد قلنا إن حديث « لا تزال طائفة من أمتي » يناقض هذا، ولكن الشيخ يفترض صورة من بلغتهم الدعوة واعترفوا بالوحدانية ولم يقفوا على شيء من أصول الأحكام فهؤلاء لا يلزمهم إلا اعتقاد التوحيد والنبوة، وتوطين النفس على التوصل إلى الأحكام في مستقبل الزمان؛ وهنا يذكر الشيخ أنه بلغ كنه ما أراده من هذا الكتاب .

ولكن هل وفَّينا نحن هذا الكتاب حقه في هذا العرض السريع؟ لا أعتقد ذلك، وإنما هو تنبيه لذوي الألباب للاستفادة من هذا السفر الكبير .

* * *

---

(١) الغياثي/ ٤٧٧ – ٤٧٨ .

(٢) المصدر السابق/ ٤١٨ .

الواقع والسياسة في فكر الندوي[1]

عرفت الشيخ أبا الحسن الندوي، الداعية والمفكر والأديب من خلال كتابه المشهور: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) وكتابه: (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية) الذي يعد من أعظم كتبه، وقرأت له (روائع إقبال) . كان ذلك في الستينيات من القرن الماضي، ثم كان بعض الانقطاع عن متابعة إنتاجه الفكري وجولاته وندواته إلى أن رجعت أخيراً إلى السلسلة التي كتبها عن رجال الفكر والدعوة في الإسلام، وخاصة ما

---

(١) هو الداعية الكبير والأديب والمؤرخ أبو الحسن علي الحسني الندوي ولد عام ١٣٣٣هـ ١٩١٤م في قرية (دارة علم الدين) من مديرية (رائي بريلي) في شمال الهند، وهو من أسرة مشهورة بالعلم والفضل، فوالده عبد الحي الحسني مؤلف (نزهة الخواطر) في تراجم أعيان الهند، ومؤلف (الثقافة الإسلامية في الهند) وجده فخر الدين الحسني كان طبيباً ومؤلفاً، وأخوه عبد العلي كان طبيباً وأميناً عاماً لندوة العلماء في الهند . نشأ الشيخ أبو الحسن نشأة تجمع بين العلم والتربية، بين العلم وتزكية السلوك، درس في جامعة (لكهنؤ) مادة الحديث لمدة سنة، ودرس العربية والنحو على علماء كبار واستفاد من وجود الشيخ تقي الدين الهلالي كمدرس في دار العلوم التابعة لندوة العلماء وفي سن العشرين عمل مدرساً في دار العلوم .

جاب الشيخ الندوي أقطار البلاد العربية والإسلامية والأوربية وألف وحاضر وشارك في المؤتمرات والمؤسسات، اهتم بالتربية والتعليم، وله مؤلفات كثيرة مشهورة .

توفي في قريته في يوم الجمعة ٣١ / ١٢ / ١٩٩٩م يرحمه الله رحمة واسعة وجزاه الله عن المسلمين خيراً .

كتبه عن أعلام الهند، كالشيخ ولي الله الدهلوي، والشيخ السرهندي. وقرأت مذكراته في: (مسيرة الحياة) فعرفت فيه بُعداً آخر، إنها شخصية المشارك في الشأن السياسي، والمشارك في هموم الأمة وما يحيط بها من أخطار، وإن الطريقة والأسلوب الذي مارسه الشيخ يدل على حسن التأتي، وعلى معرفة واقع المسلمين في الهند، وواقع من حولهم وخاصة الأكثرية الهندوكية.

انفصلت باكستان عن الهند عام ١٩٤٧م، ولم يؤيد الندوي وبعض زعماء المسلمين مثل (أبي الكلام آزاد) هذا الانفصال؛ لأنهم يرون أن التقسيم سيفقد المسلمين نفوذهم السياسي، وتأثيرهم الديني، ويجني على حركة الدعوة الإسلامية التي لا تزال المنقذ الوحيد لشبه القارة الهندية. هذا مع إعذارهم لمن اختار طريق الانفصال وتكوين دولة خاصة بالمسلمين.

بعد هذا الانفصال أصبح المسلمون في الهند أقلية، وإن كانت أقلية كبيرة، ويحملون تراثاً كبيراً يفتخرون به، تراث دول إسلامية حكمت الهند قروناً متطاولة، كان آخرها الدولة المغولية التي أسسها (بابر) وكان آخر ملوكها (أورنك زيب) الذي اشتهر بالتقوى والعدل والشجاعة.

كانت هذه الأقلية بحاجة إلى قادة وزعماء يرسمون لها طرق التعامل مع دولة الأكثرية، ويوجهون المسلمين لما فيه خيرهم، ويدافعون عنهم تجاه الأكثرية.

يصف الشيخ الندوي حال المسلمين بعد استقلال الهند عن بريطانيا، وبعد التقسيم إلى الهند وباكستان الغربية وباكستان الشرقية (بنغلادش) يقول : « رأينا البقية الباقية من المسلمين في الهند، مصابين - إلاّ من رحم ربك - باليأس ومركب النقص، فقد خذلهم قادتهم القوميون، فأصبحوا يجهلون رسالتهم، وكأنهم يعيشون في ظلام قاتل، ومن جانب آخر كان المثقفون (من الهنادك) وبصفة خاصة أولئك الذين كانوا يتبوّءون مناصب عالية يشيرون على المسلمين في (رحمة وعطف) و(بمقتضى الحكمة والمصلحة) بالانجراف في التيار القومي، ومجاراة أبناء وطنهم في اللغة والثقافة، وكأنّ المسلمين أطفال كُتّاب يحتاجون إلى من يعلمهم ويرشدهم »[1].

ومبكراً رأى الشيخ هذا الواقع الأليم فوجه دعوة إلى المتأملين في هذه الأوضاع، في كل مدرسة من مدارس الفكر والرأي للمشاورة وعرض الآراء والاقتراحات، وقد لبى الجميع هذه الدعوة، وعقدت ندوة بتاريخ ٢٦ / ٦ / ١٩٤٨م وستتحول هذه الندوة في المستقبل وتتطور إلى مجلس استشاري؛ لبحث أوضاع المسلمين يرأسه الشيخ الندوي .

وأمّا الصورة المقابلة، صورة الحكومة الهندية والأحزاب الهندوسية المتطرفة، فقد كانت الأمور هادئة في عهد نهرو، ثم بدأت تطفو على السطح العصبيات الطائفية، والحقد الهندوسي في عهد ابنته (أنديرا

---

(١) (مسيرة الحياة ١ / ٢٠٤).

غاندي)، ثم في عهد ابنها (راجيف غاندي)، ففي عام ١٩٦٣م اشتعلت الاضطرابات الشديدة في مدينة (كلكتة) وتكبد المسلمون خسائر جسيمة في أموالهم وأنفسهم، وفي عام ١٩٦٤م نشبت اضطرابات وحشية فظيعة في حدود المنطقة الشمالية من الهند، حيث قتل في (جمشيد بور) ثلاثة آلاف من المسلمين، وتكررت هذه المذابح الوحشية في عام ١٩٨٠م في (مراد آباد) وذلك أثناء صلاة العيد، ثم قصة المسجد البابري الذي قاموا بهدمه فيما بعد لإقامة معبد هندوسي على أنقاضه.

وبعد هذه المجازر الوحشية التي ترتكب بحق المسلمين: كيف كانت نظرته، وكيف حاول معالجة هذا الأمر؟

١ - في خطوة سلمية سياسية دعا الشيخ إلى تجربة جديدة في المجال الدعوي الشعبي؛ وذلك بعقد اجتماعات مشتركة يدعى فيها غير المسلمين أيضاً، لا سيما المثقفون منهم، وتُلقى فيها كلمات تُعرّفهم بالإسلام، وتحملهم على دراسته، وتجسم لهم الأخطار المحدقة بالبلاد، والإفلاس الروحي والانهيار الخلقي ونتائجه على المجتمع بأكمله، وكانت هذه الخطوة كما يقول الندوي: «لأنه لا يمكن مع بقائنا في الهند إهمال الأكثرية التي لها السيطرة، وليس هناك طرق لتوجيه أنظار الأغلبية سوى التعرض لقضايا الحياة المشتركة، والحث على الأخلاق الفاضلة ومصلحة البلاد»[١].

---

(١) (المصدر السابق ١ / ٢٤٨).

تفاجأ بعض الناس بدخول الشيخ الندوي هذه المداخل السياسية، وهذا الاهتمام الكبير بقضايا الأمة، لما يعلمون أن من منهج أسرته الاهتمام بالعلم والتأليف، فقد قام الشيخ بجولات في المناطق التي يسكنها المسلمون، وكتب المقالات الانتقادية لتوجهات الحكومة الهندية. ويسوّغ الشيخ هذا التوجه عنده بأن الحكومات في هذا العصر تتدخل في كل شأن من شؤون الحياة ولا تكتفي بالحفاظ على الأمن وتقديم الخدمات، وهذه الحكومات تأتي إلى السلطة عن طريق الانتخابات. يقول: «فكيف يجوز في البلاد التي لا نملك فيها أي وسيلة للحفاظ على حقوقنا إلاّ حق التصويت والنفوذ السياسي كيف يجوز أن نعتزل سياسة البلاد، والذين يلقنون الناس بأن السياسة ليست إلاّ الشجرة الممنوعة، بل هي (الشجرة الملعونة في القرآن) إنهم في واقع الأمر يشيرون على الأمة بالانتحار الاجتماعي والقومي»[1].

ويرى الندوي أن طريق الحفاظ على حياة العز للمسلمين أن يعد المسلم نفسه مسؤولاً عن مجتمع، وليحسب نفسه راكباً في سفينة الحياة التي إذا غرقت غرق الجميع، وإذا أراد المسلمون أن يقوموا بأعمال إيجابية فلا بد أن يتمتع البلد بأوضاع عادية معتدلة، ولأن البلاد (الهند) تسير بخطى حثيثة نحو الفوضى الخلقية، وقد أصيب الناس بجنون الانتهازية، قرر الشيخ إنشاء حركة (رسالة الإنسانية)، وقام بجولات كثيرة حضرها عدد من غير المسلمين، وخاصة الطبقة المثقفة، ولكن هذه الحركة لم تقوَ

---

(١) (المصدر السابق ١/ ٢٣٤).

على البقاء بسبب قلة الكفاءات المناسبة لهذا التحرك، والذين يمثلون بقوة هذا التوجه.

٢- وينتقل الشيخ إلى مرحلة أخرى حين رأى أن حزب المؤتمر الذي تزعّمه غاندي، والذي قاد عملية الاستقلال (مع حزب الرابطة الذي يتزعمه المسلمون)، رأى أن هذا الحزب بدأ يتحول إلى حكومة حزبية تستعمل وسائل غير مشروعة لتحقيق أهدافها، وبدأ ابن رئيسة الوزراء (أنديرا غاندي) يضايق المسلمين، فقرر الشيخ أنّ أفضل حل هو مقابلة أنديرا غاندي وكتب لها بذلك، وفعلاً تمت المقابلة في ٢٤/ ٨/ ١٩٧٦م وقدم لها رسالة شرح فيها أوضاع الهند، وقضية الإساءة للمسلمين، والانحطاط الخلق المتفشي وذكّرها بالسياسيين الكبار الذين أرسوا دعائم الحرية والاستقلال، مثل غاندي ومحمد علي وأبو الكلام آزاد ونهرو وقال لها إن الناس في حالة من اليأس تجعلهم يتذكرون ويتحسرون على أيام الاستعمار الإنكليزي ويتمنونه.

وفي عام ١٩٨٤م ازدادت الأمور سوءاً، فقد بدأ الهندوس المتطرفون ينادون بإبادة المسلمين وتصفيتهم، ويطالبون بالمساجد الإسلامية مثل المسجد البابري، وأصبح وضع المسلمين في خطر كبير، فكتب الشيخ إلى أنديرا غاندي مرة ثانية في ٢٠/ ١٠/ ١٩٨٤م رسالة مطولة، ولكنها لم تصل بسبب مقتل رئيسة الوزراء في حادث اغتيال على يد أحد أفراد طائفة السيخ. والرسالة وثيقة سياسية مهمة، وهي نموذج لمن كان في ظروف كظروف المسلمين في الهند، وكيفية خطاب قادة البلاد

والمسؤولين، وما هي الموضوعات التي تطرح على بساط البحث، وسأنقل فقرات منها – لأهميتها – يقول: « المكرمة: أنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند: إنني لا أريد أن أنفق وقتك الثمين في القضايا الجزئية، وهي رفع شكاوي المسلمين وذكر حاجاتهم ومتطلباتهم، ولا يخفى عليك أن ما أريد أن أعرضه الآن يتعلق بمصلحة البلاد العامة. إن النقطة الأولى هي أنه لا طريق أسلم وأصلح وأضمن لسلامة البلاد وأدائها لدورها من ذلك الطريق الذي اختاره قادة التحرير المخلصون، والدك نهرو، ومولانا أبو الكلام آزاد وأصحابهما، مهما كان الطريق طويلاً، وإن أول ما أريد أن أفضي به إلى دولتك كتلميذ من تلاميذ الديانات، والأخلاق والتاريخ البشري، هو أن هذه البلاد إنما تواجه خطرين كبيرين يستحقان الاهتمام، أحدهما: الميل الجامح إلى الظلم والعدوان، والاستهانة بالأنفس والأموال والأعراض من أي طبقة أو فرقة كانت، من مظاهر ذلك الاضطرابات الطائفية، والنظام الطبقي، ومعلوم أن كل من يعتقد في الديانات أن خالق هذا الكون والمتصرف فيه لا يرضى هذا العمل الوحشي، ولا يخفى أن الدول الكبيرة التي كان لها دوي عظيم في عهودها لم تستطع أن تتماسك مع الظلم والعدوان وأنها دمرت تدميراً، والشيء الثاني الذي يستحق العناية والمعالجة هو موقف الليونة والمجاملة مع حركة إحياء الهندوسية، والمنظمات المتطرفة، إن هذا الموقف يمكن أن يجر للحكومة بعض المنافع المؤقتة، ولكن في الوقت نفسه زرع الألغام المدمرة التي لا تبقي ولا تذر، وقد كان الزعيم غاندي يدرك هذه الحقيقة، ولذلك فإني أصرح بأن هذه

الحركة العدوانية والعنف، ومطالبة طائفة واحدة (المسلمين) بالتخلي عن شخصيتها ومميزاتها الدينية والحضارية إنما هو في الحقيقة تَعرُّض هذه البلاد للمشاكل والأخطار.

أمّا الأمر الثالث الذي يحتاج كذلك إلى عناية بالغة فهو: الفوضى الإدارية والخلقية التي بلغت حداً لا أجد له مثيلاً في تاريخ هذه البلاد سابقاً، فلا تنظروا إلى التقارير الرسمية والتنظيمات الظاهرة، بل اسألوا عامة الأهالي وسكان الطبقة المتوسطة، فلا عمل إلاّ بالرشاوي، وبالرشوة يمكن تخليص المجرمين وتصيد الأبرياء، وإشعال نار الطائفية. الأدوية ليست جيدة، والأغذية ليست صالحة والإسعاف الطبي صعب المنال، لقد ملّ الناس الحياة مما يدعو إلى الخجل والحياء والشعور بالإخفاق، ولا أكتمك إن في ذلك دخلاً كبيراً لطريقة الانتخابات وإرضاء الناخبين على حساب كل شيء، والخضوع للدوائر الانتخابية، وأخيراً أقول كرجل له دينه وعقيدته وكطالب لتاريخ العالم إنه قد أثبت التاريخ والتجارب الماضية أن أكبر سياسة هو (الإخلاص) وهو الذي ينتصر أخيراً، وأعتذر لطول الحديث، فقد أطاله الأمل في حسن الاستماع.....»[1].

رسالة صريحة ينبه فيها إلى المشاكل الكبرى للدولة: الفساد الإداري وانتشار الظلم والسكوت عن تطرف الحركة الهندوسية ونصيحة قوية أن الدول التي يعم فيها الظلم لا تستمر طويلاً، ووضع الأصبع على بعض الداء حين ذكر أن طريقة الانتخابات وإرضاء الناخبين لها دور في

(١) (مسيرة الحياة ٢ / ٦٣).

السكوت على المجرمين والتعصب الهندوسي وهذا هو داء الديمقراطيات.

وبعد مجيء (راجيف غاندي) ابن رئيسة الوزراء السابقة، ثارت مشكلة تدخل الدولة في قضية الأحوال الشخصية للمسلمين، حين حكمت محكمة الاستئناف في عام ١٩٨٥م في قضية (نفقة المطلقة) حسب القانون المدني، وحاولت المحكمة الالتفاف على الآيات القرآنية، وبدأت الصحافة الإنكليزية والهندية تشجع المحكمة وتهاجم المسلمين، عندئذٍ قرر الشيخ وبتكليف من هيئة الحفاظ على الأحوال الشخصية للمسلمين، مقابلة رئيس الوزراء (راجيف غاندي)، وتمت المقابلة وقال الشيخ: «سيادة رئيس الوزراء! إنه كما يكون للكتابة اختزال، كذلك يكون للسياسة أيضاً طريق قصير وهو أن يُراجَع في هذه القضية أصحاب الاختصاص فيها، وقد أدرك (راجيف) مرامي كلامي واقتنع بذلك، وعلم أن الذي يتحدث إليه ليس سياسياً محترفاً، ولا قائداً داهية»[١].

وقد خاطب رئيس الوزراء البرلمان في جلسة خصصت لغرض بحث مشكلة المسلمين والأحوال الشخصية، قال: إن المذكرة التي قدمت للبرلمان أوسع دائرة، وأكثر حفاظاً على حقوق المرأة المسلمة، والحكومة لا تستطيع أن تلزم الناس بالقانون المدني، والقانون الإسلامي يعطي ضماناً أكبر من قانوننا الوضعي لحقوق النساء...»[٢].

---

(١) (المصدر السابق/ ٢/ ٩٩).

(٢) (المصدر السابق ٢/ ١٠٢).

إنه تعامل مع الواقع، واقع أكثرية من غير المسلمين يمكن أن تشرع في كل يوم وتغير رأيها، ولكنه تعامل ليس فيه تنازلات عن الثوابت؛ بل فيه قوة في الخطاب، وبيان للفساد الإداري وتحذير منه، ونصح بلهجة قوية، مع تحذير مبطن بألاّ يعتدوا على المسلمين، مع مدح وإشارة إلى الشخصيات الكبيرة التي لم يقع في عهدها مثل هذه المجازر ضد المسلمين. وكل هذا معناه أن المسلمين مع هذه الأكثرية هم في رباط دائم إلى أن يأتي الله بأمره، ولا يكون للكافرين على المؤمنين من سبيل.

* * *

الفاعلية وعوامل تنميتها

كيف نعيد للمسلم فاعليته؟

كيف يمكن أن نرتفع بسلوك المسلم وعقليته ليكون شخصاً فعالاً صاحب عطاء أكثر وإنتاج أكثر: إنتاجاً مادياً ومعنوياً، ما هي العوامل التي تساعده على ذلك، وما هي العوائق التي تضعفه وتمنعه عن هذا العطاء؟ فقد يكون الإنسان ذكياً أو صاحب شهادات علمية رفيعة، ولكنه لا يتمتع بالفاعلية المطلوبة؛ لأن الثقافة التي أُشْرِبَها لا تساعده على إنجاز كبير، أو تصيبه بنوع من العطالة الفكرية أو العلمية، كمن يقرأ أحاديث الرسول ﷺ المتعلقة بالمستقبل مثل أحاديث الفتن والملاحم، ويفهمها فهماً مغلوطاً، ومن ثَمَّ يقعد في بيته ولا يعمل شيئاً لنصرة الإسلام، أو كمن يحمل فكرة غير صحيحة عن عالم من العلماء فيحرم من الاستفادة من علمه، والأفكار التي يحملها أفراد في المجتمعات الإسلامية نتيجة الأوهام والخرافات كثيرة جداً، وهي من أسباب العطالة والتخلف.

ما هي الفاعلية؟

هي الإنتاج الجيد والاستمرار في هذا الإنتاج، كما جاء في الحديث عن أم سلمة – رضي الله عنها – تصف عمل الرسول ﷺ: «كان أحب

العمل إليه ما داوم عليه العبد وإن كان يسيراً[1]»، وكما وصفت عائشة – رضي الله عنها – عمل رسول الله ﷺ: «كان عمله ديمة[2]» . . قال ابن الأثير: الديمة: المطر الدائم في سكون، شبهت عمله في دوامه مع الاقتصاد بديمة المطر، والفاعلية أيضاً هي الموازنة بين ما نريده على المدى القريب وما نريده على المدى البعيد؛ فنحن نريد من الآلة التي بين أيدينا ونستخدمها لمصالحنا أن تستمر صالحة لوقت طويل، ولكن هذا يحتاج منا أن نهتم بها ونتفقدها بين الحين والآخر لإصلاح ما فسد أو سد ما فقد، ولا بد هنا من التفريق بين الفاعلية وبين الكفاءة، فقد يقود الإنسان سيارته بكفاءة عالية ولكن إذا كان متجهاً الوجهة الخطأ فإن عمله لا يتسم بالفاعلية[3].

ولو أن طائرة متجهة من لندن إلى موسكو انحرفت درجة واحدة عن مسارها لوجدت نفسها أخيراً في القاهرة، وكما قال الشاعر:

لحظة يا صاح إن تغفل ألف ميل يبعد المنـــزل

كما أنه لا يعتبر فعالاً من يجد نفسه في شغل دائم، فقد يكون مشغولاً بأمور صغيرة وقد ترك أموراً كبيرة أو حاجات أساسية لم ينتبه لها، فالقاعدة التي تقول: «أنا مشغول . . إذن أنا فعال» غير صحيحة، فالفاعلية تعني: تحديد الوجهة والهدف، والفهم الصحيح للموقع الذي أنت فيه.

---

(١) صحيح ابن حبان ٦ / ٢٥٢.

(٢) المصدر السابق ٢ / ٢٧.

(٣) ستيفن كوفي وزملاؤه «إدارة الأوليات» / ٢٨ مكتبة جرير. الرياض ١٩٩٩.

من أين تأتي الفاعلية؟

١ - المبادئ الثابتة:

إن أفضل النتائج إنما تأتي في الارتكاز إلى المبادئ التي من صفتها الثبات، لا تتبدل بتبدل الزمان أو المكان، إنها كالمنارة الثابتة التي تهدي السفن وتجنبها الارتطام بالصخور، إنها تعطي المسلم قوة في الشخصية وثقة في النفس؛ فالمسلم لا يصدق في مكان ويكذب في مكان آخر، ولا يعدل مع أناس ويظلم غيرهم.

إن أموراً مثل الغش والخداع وغياب الإتقان، والنفور من النظام أو احتقار الآخرين لا يمكن أن تأتي بنتائج إيجابية.. بل هي التي تفسد حياتنا اليومية، وتجعل من الإنسان معطوباً في بنيته الأخلاقية ووجوده الاجتماعي.

إن المسلم يملك خير المبادئ التي تعطيه رؤية واضحة حين يقع الناس في الحيرة والقضايا الشائكة، إن قراراته وتصوراته لا تخضع لوضعه المالي أو لضغوط الناس أو للظروف والعواطف، وإنما للمبادئ التي يصر على التمسك بها مهمَا كانت الظروف. وفي السنن الكونية أن المبادئ هي التي تنتصر في النهاية ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] والمبادئ لا تموت، بينما الاعتزاز بأعراض من الدنيا قد يذهب كالمال والمنصب وتأتي بعده الحسرات.

٢ - الأهداف ووضوحها :

حين يحمل الإنسان (رسالة) وحين يملك رؤية واضحة للمستقبل فإن هذا مما يفجر الطاقات ويضاعف الإنتاج، هنا يملك الإنسان شيئاً يقدمه للآخرين، وإذا لم يكن عنده ما يقدمه فسيصاب بالخمول والابتعاد عن الشهود والحضور. وهكذا فجّر الإسلام الطاقات عند الصحابة الذين وإن كان بعضهم يملك طاقات معينة ولكنها معطلة بسبب ثقافة العصر الذي عاشوا فيه فلما جاء الإسلام تحول مثل عمر بن الخطاب إلى شخصية من قادة التاريخ، وبسبب وضوح الهدف والثقة بالقيادة حفر المسلمون الخندق في مدة وجيزة، وكان أصغر جندي في جيوش المسلمين يحمل (رسالة) وهي إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، إنه يشعر بالمهمة الضخمة الملقاة على عاتقه.

الهدف السامي يعطي الإنسان سعة في الأفق وانشراحاً في الصدر، أما الفارغ المملوء بالأنانية فلا يكون فعالاً أبداً، ووضوح هذا الهدف مما يزيل كثيراً من العراقيل وخاصة في بداية الطريق، « فالبوصلة هنا التي تحدد الاتجاه أهم من الساعة التي تضبط الوقت[١] ». كانت الرؤية واضحة عند رسول الله ﷺ عندما أزاح صخرة في حفر الخندق يقول: « أضيئت لي قصور كسرى وقيصر[٢] »، وهذه بشارة بأن المسلمين سيفتحون هذه البلاد ويملكونها، وهذا يعطي ثباتاً وقوة في الاندفاع لتحقيق رسالة

---

(١) ستيفن كوفي وزملاؤه « إدارة الأوليات » / ١٧ مكتبة جرير. الرياض ١٩٩٩ .

(٢) أكرم العمري « السيرة النبوية الصحيحة » ٢ / ٤٥٣ .

الإسلام.

إن وضوح الهدف يدفع لمقاومة الخوف والتردد، وكل الأمور التي تحد من العطاء المفيد، ولنتصور إنساناً أنشأ مشروعاً كمدرسة أو مشفى ولكنه لم يحدد أهدافه فكيف تكون النتائج؟

« وفي سؤال لمتدربين إداريين عن الوقت الذي يضيع في معالجة آثار عدم الوضوح في التوقعات كان الجواب: أن ٦٠٪ كحد أدنى يهدر من الوقت والجهد..[١] ».

٣ - البدء بالأهم:

هل نبدأ بالأمور الأساسية أم ننشغل بالجزئيات؟ هل نضع كل جهودنا في الردود على المخالفين أم لتأصيل المنهج ونشر الدعوة بين عامة المسلمين وعامة الخلق؟ هل ننشغل بالأمور الكبرى للأمة؟ أين نضع أولوية المدارس والعلم والدراسات؟ هل ننفق الأموال على زخرفة المساجد والقيام ببعض النوافل أم هناك أشياء كثيرة هامة تتعلق بحياة المسلمين ونصرتهم؟.. إن فقه هذه الأولويات يساعد على البناء ويقلل الخسائر، ويوفر كثيراً من الجهد والوقت، فقد يُطلب من المسلم أشياء أكبر من طاقته بعشرات المرات، فإذا لم نبدأ بالأهم فربما نقع في الإخفاق والتراجعات، وقد لاحظ أبو حامد الغزالي قديماً هذا التشوش في الأولويات فقال مستنكراً على الأغنياء: « ربما يحرصون على إنفاق المال في الحج،

---

(١) ستيفن كوفي وزملاؤه «إدارة الأولويات» ٣٣١.

فيحجون مرة بعد أخرى، وربما تركوا جيرانهم جياعاً، وفرقة أخرى يشتغلون بالعبادات البدنية كصيام النهار، وإنما حال هذا إطعام الجياع فهو أفضل له من تجويع نفسه..[1]».

إن قيمة الفاعلية لا تعتمد على ما نبذله من جهد بقدر ما تعتمد على ما إذا كان هذا الجهد في المكان المناسب.

٤ - التوازن:

من أبرز الأشياء التي تساعد على الفاعلية إقامة التوازن بين مطالب الإنسان وحاجاته، بل هو جوهر الفاعلية، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧]. . فسمى الله هذا التوازن ﴿قَوَامًا﴾ به قيام الإنسان، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] فهذا إقامة لحياتهم على أساس التوازن بين جوانبها المختلفة، إنه توازن بين مطالب الروح ومطالب الجسد، بين الحاجات النفسية والحاجات الاجتماعية، بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة، بين المبادئ النظرية والممارسات العملية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦] ويكون التوازن بألا ننسى الأمس وما حدث فيه وننطوي على الحزن، ولا نحلم بالغد في غير واقعية ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ

---

(١) أبو الحسن الندوي «رجال الفكر والدعوة» / ٢١٣.

فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد : ٢٣] .

إن الذي ينفق أمواله حتى آخر قرش لديه سيقعد «ملوماً محسوراً» كما وصفه القرآن، وإن كمية من المال في يد إنسان فعّال يمكن أن يقضي بها حاجاته الأساسية، وفي يد غيره لا تعطيه ثمرة ولا تقضي حاجة. إن إتلاف الأصول المادية التي نستعملها ونحتاج إليها في حياتنا اليومية يصيبنا بالارتباك المادي، فالسيارة التي تحملنا والآلة التي نستعملها إذا لم نصلحها فلا نستطيع الاستفادة منها وسيذهب جزء من الوقت هدراً، والإنسان الذي يعمل إلى حد الإعياء ولا يأخذ وقتاً للراحة هل يكون فعالاً؟ وفي الحديث النبوي: «إن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً». والملاحظ في الدعوة الإسلامية اليوم أن الشخص النشيط توضع عليه الأعباء كلها حتى يصل إلى مرحلة لا يستطيع فيها على الإنجاز ولا الإتقان.

وضع القرآن المسلم بين حدّين: الأمل والرجاء من جهة، والخوف من جهة أخرى حتى يبقى في توازن، ولو طغى الرجاء لترك العمل، وإن طغى الخوف أصيب باليأس.

٥ - لا نصطدم بقوانين الفطرة:

في الأمور العادية من حياتنا علينا أن ننتظر حتى ينضج المحصول الزراعي، وأن ننتظر المدة المعلومة حتى يأتي المولود، ولكن في الحياة الاجتماعية هل بإمكاننا أن نتجاهل هذه السنة الكونية أو نتحايل عليها؟

فالطالب الذي يؤجل الدراسة إلى ما قبل الامتحان بأيام قليلة هل نتوقع له النجاح؟ والشخصية الإنسانية هل نستطيع الضغط عليها فيتحول الجبان إلى شجاع والبخيل إلى كريم بين ليلة وضحاها؟.. أم أن الأمر بحاجة إلى تربية وصبر، والمجتمعات في واقعها الحالي ألا تحتاج إلى جهد وإعداد وتدرج حتى ننقلها إلى خير مما هي عليه؟ إذن هناك سنة كونية هي سنة الأسباب والنتائج.

٦ - طريق ثالث أو رابع:

كثيراً ما يقع التفكير في حتمية الثنائيات مع أو ضد، جيد أو سيئ، قوي أو ضعيف، ولكن أمور الحياة لا تقع دائماً تحت هذه الحتميات، فقد يكون هناك طريق ثالث أو رابع، وقد ترك الإسلام مساحة للفرد للأخذ بالحد الأدنى أو الارتقاء إلى درجة المحسنين؛ فقد سمح له أن يأخذ حقه من خصمه ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الشورى: ٤١] ثم طلب منه الارتقاء إلى ما هو خير ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]. والقرآن الكريم يفتح الطريق في كل مجال إلى مشاركة أكبر، وهو يحث الإنسان أن يرتفع دائماً إلى درجات أكثر جدارة في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨][1].

---

(١) انظر محمد عبد الله دراز «دستور الأخلاق في القرآن»/ ٩٢.

وهذا لا يعني أن بين الحق والباطل طريقاً ثالثاً؛ فهذه قضية أخرى والكلام هو عن عدم (التصلب) الذي يؤدي إلى الجمود، وإن من معجزات التشريع الإسلامي فتحه لباب الاجتهاد بعد التأكيد على الثوابت، وهذا ما أعطى المجتمع الإسلامي القوة والاستمرارية، وفي القواعد الفقهية أن الأحكام قد تختلف باختلاف الزمان لحدوث ضرورة أو لتغير العرف[1].

وفي الحديث النبوي الشريف نجد أن رسول الله ﷺ يطلب من المسلمين أن يسيروا بسير أضعفهم، وذلك حتى يبقى المجتمع متماسكاً؛ فالقوي يساعد الضعيف حتى لا يُهمَل أو يصبح جزءاً مريضاً في المجتمع، إن بعض الناس تسيطر عليه عادة تأسره وتقيد حركته، بينما نجد في سيرة الرسول ﷺ أنه يأكل مما حضر ولا يتكلف شيئاً ويلبس ما يناسبه على عادة أهل بلده لا يتقيد بشيء معين.

٧ - إحسان العمل:

تأتي الفاعلية في ترتيب الأوضاع وتنسيقها، وإحكام العمل وإجادته، وهذا رفض للفوضى والتقصير والعجز، وهو يوفر الجهد والوقت، ويعطي النفس راحة، وقد حث القرآن المسلمين على الإحسان في أعمالهم ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

---

(١) صبحي الصالح «معالم الشريعة»/ ٦٧، وقد يكون من أسباب تفوق الإنجليز على الأمم الأوروبية الأخرى مرونة القوانين عندهم وإعطاء السلطة التنفيذية والسلطة القضائية مساحة واسعة للتصرف.

عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنكم قادمون على إخوانكم، فأصلحوا رحالكم وأصلحوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»[1]. ومن الإحسان أن نقوي أنفسنا من خلال التغلب على الصعاب والتحديات كما نقوي عضلاتنا من خلال التدرب على رفع الأثقال، وأن نزيل ما في أنفسنا من الحسد والصراع على التوافه وتمضية الوقت في تلمس عيوب الآخرين والصعود على أنقاض الخصوم، وأن نتعود على التفاؤل بالخير، وامتلاك الشجاعة الأدبية التي تساعد على اتخاذ القرار المناسب، وتبعد عنا الخوف والتردد. قال تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان: ١٧، ١٨].

٨ - التجدد:

التجدد هو متابعة المسار الصحيح بين كل فترة وأخرى، حتى لا تقيدنا خطوات وضعناها في الماضي وعند مراجعتها نجد أنها غير ضرورية، حين يمارس الإنسان الرياضة البدنية الشاقة تتمزق الأنسجة العضلية، فيقوم الجسم بالتعويض عنها، وكذلك في الرياضة الأخلاقية التي كرر ذكرها القرآن مثل رياضة «الصبر» فإنه عندما يصل صبر المؤمن إلى أقصى الطاقة، فإن الله سبحانه وتعالى يعوضه بأفضل مما كان عليه. إن العبادات التي

---

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن.

يمارسها المسلم كل يوم تجعله في تجدد إيماني عاطفي، وما يطلبه الإسلام من علاقات اجتماعية مثل صلة الرحم، وحق الجوار، وتفقد الأصدقاء يعطيه فرصة للتجدد الاجتماعي.

«إن النفس بحاجة بعد كل مرحلة من مراحل الحياة لأن تعيد النظر فيما أصابها من غُنم أو غرم، وأن يرجع إليها توازنها واعتدالها[1]».

٩ - التوقي من المعلومات الخاطئة والأخبار غير الدقيقة:

وتأتي الفاعلية عندما لا نقع في شَرَك المعلومات الخاطئة والأخبار غير الدقيقة، فإما أن نعيش على الأوهام وأحلام اليقظة أو نقع في الخوف من شيء مجهول، كالذي يرى شبحاً في الظلام، فترتعد فرائصه، فإذا تبين له أنه حجر أو شجر زال خوفه. إن المعلومات الخاطئة تجعل الإنسان يصاب بالإحباط أحياناً أو بالذهول عندما تتكشف الحقائق.

* * *

(١) محمد الغزالي «جدد حياتك» ١٧.

فقه المرحلية

عند عبد الحميد بن باديس

كتب الكثير عن حياة الشيخ عبد الحميد بن باديس، فهو رائد النهضة الإسلامية في الجزائر في العصر الحديث، وهو علم من أعلام الإصلاح والتجديد في القرن الماضي، ومن أعظم أعماله تأسيس جمعية العلماء التي لا تزال مصدراً مهماً للتأمل والاستفادة: كيف نشأت وكيف استمرت وأعمالها الكبيرة. لقد أصابت هذه التجربة النجاح بنسبة عالية، وقد شعر الشيخ بأهمية ما قام به هو وإخوانه العلماء فكتب مذكراً ومشيداً، وربما حتى لا ينتقص أحد هذا العمل الدؤوب فقال: «لم تقم في أمة إسلامية هيئة علمية منظمة تعلن الدعوة إعلاناً عاماً، وتصمد للمقاومة غير الأمة الجزائرية، فكان من علمائها الأحرار المستقلين أولئك الذين نهضوا بالدعوة الإصلاحية وجاهدوا وصابروا وأسسوا لها مؤسسة دينية حتى أصبحت الدعوة الإصلاحية والحمد لله ثابتة الأركان، باسقة الأفنان..[1]».

لم يأت تأسيس جمعية العلماء نتيجة حدث أو رد فعل أو بصورة عفوية، وإنما جاء بعد تخطيط وتفكير، وبعد دراسة وتأن، كانت البداية عام ١٩١٣م ولكن الجمعية لم تقم إلا عام ١٩٣١م، لقد انتظر الشيخ

---

(١) تركي رابح: الشيخ ابن باديس باعث النهضة الإسلامية/ ١٤٦.

حتى تنضج الفكرة وتأخذ حقها من التريث والترتيب وجمع الكلمة.

نبذة عن حياته:

ولد ابن باديس في مدينة قسنطينة (من مدن شرقي الجزائر) عام ١٣٠٨هـ - ١٨٨٩م، من أسرة ذات جاه وشهرة؛ فوالده كان عضواً في المجلس الجزائري الأعلى، وترجع هذه الأسرة في أصولها إلى ملوك الدولة الصنهاجية ومن أشهرهم: المعز بن باديس (٣٩٨ - ٤٥٤ هـ) الذي انفصل عن الدولة العبيدية (الفاطمية) في مصر، وأعاد المنطقة التي حكمها إلى السنة.

درس ابن باديس في مدينته القرآن والعلوم الإسلامية ولم يلتحق بالمدارس الفرنسية، وقد اختار له والده أحد الشيوخ الصالحين (الشيخ حمدان الونيسي) فدرس عليه العربية والعلوم الإسلامية، وكان من وصايا الشيخ حمدان لتلميذه: أن يقرأ العلم للعلم، لا للوظيف ولا للرغيف، وأخذ عليه عهداً ألا يقرب الوظائف الحكومية عند فرنسا، وقد نفذ ابن باديس وصية شيخه كما أراد.

- ارتحل ابن باديس في عام ١٩٠٨م، إلى تونس ليدرس في جامعتها المشهورة (الزيتونة) وهناك التقى بكبار علمائها وأعلام الإصلاح في تونس، ومن أبرز شيوخه: محمد النخلي، الطاهر بن عاشور، البشير صفر، الخضر حسين.

- في عام ١٣٣٢هـ - ١٩١٣م ارتحل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج

وللالتقاء بشيخه الونيسي المهاجر إلى الحجاز. وفي المدينة النبوية التقى أيضاً ولأول مرة بالعالم والأديب الجزائري الشيخ محمد البشير الابراهيمي، وفي المدينة وفي لقاءاته المتكررة مع الإبراهيمي وضعت نواة العمل في الجزائر، ونواة تأسيس جمعية العلماء. يقول الإبراهيمي: «وكنا نؤدي فريضة العشاء كل ليلة في المسجد النبوي ونخرج إلى منزلي فنسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد، فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح، ويشهد الله على أن تلك الليالي هي التي وضعت فيها الأسس الأولية لجمعية العلماء».

– رجع الشيخ إلى الجزائر في العام نفسه، وبدأ تطبيق برنامجه وخطته التي فكر فيها كثيراً: إنه التعليم المسجدي: الناشئة في النهار حيث تبدأ الدروس بعد الفجر وتستمر حتى المساء وبعد العشاء درس للكهول والشيوخ من أهالي قسنطينة يفسر لهم القرآن.

– في عام ١٩٣١ أسس مع الإبراهيمي وآخرين جمعية العلماء التي سيكون لها دور بارز في نهضة الجزائر.

– في عام ١٩٣٨ احتفلت الجزائر من أقصاها إلى أقصاها بختم الشيخ لدروس تفسير القرآن الذي أتمه خلال خمس وعشرين سنة.

– في عام ١٣٥٩هـ ١٩٤٠م توفي ابن باديس – رحمه الله – رحمة واسعة مخلفاً وراءه ثروة من الرجال، وثروة من العلم.

الأهداف والمرحلية:

كما يقال: (ابدأ والنهاية في ذهنك) فإن الأهداف – البعيدة المدى – كانت واضحة منذ لقاء ابن باديس – الإبراهيمي – يقول الأخير: «كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي: ألا نتوسع له في العلم وإنما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا»[1]. ومن الأهداف البعيدة لجمعية العلماء «إنشاء جيش من الشباب يحمل فكرة الجمعية وعقيدة الإسلام، وأن يكون هؤلاء نقط جذب لمئات الآلاف من أنصار الفكرة وحملة العقيدة..»[2].

إن تشخيص الداء واضح عند هذين الزعيمين. يقول الإبراهيمي: «إن البلاء المنصبَّ على هذا الشعب آت من جهتين متعاونتين عليه.. يفسدان عليه دينه ودنياه: استعمار مادي (فرنسا) واستعمار روحاني (مشايخ الطرق) المؤثرون في الشعب، المتجرون باسم الدين، والاستعماران متعاضدان يؤيد أحدهما الآخر وغرضهما تجهيل الأمة لئلا تفيق بالعلم، وتفقيرها لئلا تستعين بالمال على الثورة، وكان من سداد الرأي أن تبدأ الجمعية بمحاربة الاستعمار الثاني لأنه أهون»[3].

والبداية بالأضعف – عدا عن دلالتها على وضوح فكرة المرحلية عند

---

(١) د. محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس/ ٢٧.

(٢) المصدر السابق/ ٢٦.

(٣) المصدر السابق/ ٢٥.

الشيخ والجمعية – فهي كذلك محاصرة للاستعمار الأول، وفضح أعوانه وتنحيتهم طائفة بعد أخرى، لأن محاربة «الطرقية» . . ستظهر لبادي الرأي كدعوة دينية بحتة لتنقية الإسلام من البدع، ولا دخل لها بمحاربة فرنسا .

المرحلة الأولى:

بعد رجوع ابن باديس إلى الجزائر من رحلته العلمية ورحلته إلى الحجاز ركز جهوده كلها على التربية والتعليم، وقد بدأ بداية بسيطة في مسجد «سيدي قموش» وفي «الجامع الكبير» في قسنطينة، كان النهار كله للأطفال والشباب، يعلمهم العربية وأمور دينهم، وفي المساء تفسير القرآن للكهول والشيوخ، وتقاطر عليه الناس يستفيدون من علمه . . منعته فرنسا من دروس «الجامع الكبير» فانتقل إلى «الجامع الأخضر» .

وقد استعان بوجاهة والده لدى الحكومة فأذنت له بالتدريس، وربما ظنت فرنسا أنه شيخ مثل بقية الشيوخ لا خطر منه، أو أنها سكتت عنه احتراماً لوالده . ولم يبدأ الشيخ بالعمل السياسي لأنه رأى أن الخطب والمظاهرات والاحتجاجات لا تجدي نفعاً مع هذا الاستعمار .

كانت هذه السنوات تأسيساً وإرهاصاً لنشوء جمعية العلماء، وفي هذه الفترة كانت المشاورة مستمرة مع الشيخ الإبراهيمي، وكان اللقاء كل أسبوعين . . يقول الإبراهيمي: «فنزن أعمالنا بالقسط، ونزن آثارها في الشعب بالعدل، ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامجنا

للمستقبل بميزان لا يخل أبداً..»[1].

بعد أن أحس ابن باديس بصلابة الأرض تحت قدميه؛ بدأ بالهجوم على الطرق الصوفية الذين ارتضوا لأنفسهم ما ارتضته لهم فرنسا، وأصدر جريدة (المنتقد) عام ١٩٢٥م، واسمها يدل على ما يهدف إليه الشيخ، وتنبهت الإدارة الفرنسية إلى خطر هذا المصلح الذي يهاجم أعوانها فأصدرت قراراً بتعطيل الجريدة بعد أن صدر منها ثمانية عشر عدداً، ولكن الشيخ كان قد بدأ مشروعه وسار فيه شوطاً، وقد فات الأوان على فرنسا أن تحاصره أو توقف عمله.

في هذه المرحلة كان الشيخ حذراً في التعامل مع فرنسا، ويتكلم بلهجة واقعية، ويطالب بمطالب بسيطة، فهو يطالب فرنسا بتطبيق دستورها وألا تكيل بمكيالين.. يقول في المقال الافتتاحي في العدد الأول من جريدة (المنتقد): «نحن قوم مسلمون جزائريون في نطاق مستعمرات الجمهورية الفرنسوية، فلأننا مسلمون نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا، وإن الحكومة التي تتجاهل دين الشعب تسيء في سياسته، ولا نعني بهذا أننا نخلط بين الدين والسياسة في جميع شؤوننا وإنما نعني اعتبار الدين قواماً لنا وملجأً شرعياً لسلوكنا، ولأننا جزائريون نعمل للم شعث الأمة وترغيبهم في العلم والعمل المفيد، ولأننا مستعمرة نسعى لربط أواصر المودة بيننا وبين الأمة الفرنسية، ونحن ندعو فرنسا إلى ما تقتضيه مبادئها

---

(١) د. محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس/ ٢٠.

الثلاثة: الحرية، المساواة، الأخوة»[1]. فالخطاب واضح: الجزائر تابعة لفرنسا إدارياً وتمد لها يد الصداقة لتفيد منها في النهضة الاقتصادية والسياسية، ولكن الجزائر «مسلمة» وهذه هويتها. ويقول تعليقاً على قانون ١٨٦٥: «قضى قانون ١٨٦٥ اعتبارنا فرنسيين، ولكنه نفذ تنفيذاً جائراً فيفرض علينا جميع الواجبات دون حقوقها..»[2].

المرحلة الثانية:

بعد إقفال جريدة (المنتقد) أصدر الشيخ جريدة (الشهاب) التي احتفظ بها حتى وفاته، وكانت أسبوعية ثم تحولت شهرية، وكان يصدِّرها أحياناً بدروسه في التفسير، وأصدر صحفاً أخرى مثل (الشريعة)، (السنة المحمدية) (الصراط)، ولم تعمر طويلاً؛ فقد أوقفتها الإدارة الفرنسية، وبدأت نبرة الانتقاد للطرق الصوفية وعملاء فرنسا تعلو، وبعد تأسيس جمعية العلماء وحتى لا يحرج الجمعية كان إذا أراد مهاجمة الاستعمار الفرنسي يقول: «اتركوا لي هذا الأمر شخصياً» وكان ذلك على صفحات «الشهاب».

من أبرز أعمال هذه المرحلة.. تأسيس «جمعية العلماء الجزائريين» التي تكللت بالنجاح وتأتي في قمة عطاء ابن باديس والإبراهيمي وغيرهم من العلماء كالشيخ العقبي والتبسّي... كان ذلك في عام ١٩٣١م بعد مرور قرن على الاحتلال الفرنسي لهذا القطر العربي الإسلامي، وبعد أن

(١) محمد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر/ ١٦١.

(٢) المصدر السابق/ ١٨٠.

ظنت فرنسا أنها ألحقت الجزائر بها سياسياً وثقافياً إلى غير رجعة، وكتب الكاردينال (لافيجري) في احتفالات سنة ١٩٣٠م: «إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر»، وإذا بها تفاجأ بعمل كبير كان له أكبر الأثر في أجيال قاومت فرنسا وحفظت للجزائر دينها ولغتها.

كتب الإبراهيمي عن تأسيس الجمعية: «دعونا فقهاء الوطن كلهم وكانت الدعوة صادرة باسم الأمة كلها وليس فيها اسمي ولا اسم ابن باديس، لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا لما سبق من الحملات الصادقة على جمودهم، فاستجابوا جميعاً للدعوة واجتمعوا في يومها المقرر، ودام اجتماعنا في نادي الترقي بالجزائر أربعة أيام، وانتخب ابن باديس رئيساً.. وجاء دور العمل»[1].

كان هذا الاجتماع بعد تمهيد طويل ونتيجة تشاور واتصالات وإقناع، وبعد أن نفخ ابن باديس في المسلمين روح الاجتماع والشورى – يقول: «ما أصيب المسلمون في أعظم ما أصيبوا به إلا بإهمالهم أمر الاجتماع ونظامه، فعلى أهل العلم – وهم المسؤولون عن المسلمين بما لهم من إرث النبوة فيهم – أن يقوموا بما أرشدت إليه الآية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ..﴾ [النور: ٦٢].

وحتى ينجح هذا المشروع الكبير؛ فإن الشيخ أراد أن يسير به بحذر

---

(١) محمود قاسم: ابن باديس/ ٢٣.

وتؤدة وأن يجنبه الألغام، فكان من دستور «الجمعية» أنه «لا يسوغ لها بأي حال من الأحوال أن تخوض في الأمور السياسية»، ومن أهدافها «محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر وكل ما يحرمه الشرع وينكره العقل»، وكان هذا ستاراً رقيقاً، أما المضمون والواقع فإنها خاضت في السياسة بطريقة أخرى عندما أنشأت المدارس العربية في مدن الجزائر وقراها، وعندما نادت بالأخوة الإسلامية وحقوق الإنسان ومناهضة الظلم والاستعباد. نعم لم يبدأ الشيخ بالعمل السياسي الذي هو عند البعض خطب ومظاهرات لا تجدي مع هذا الاستعمار، وإنما خطته.. محاصرة هذا الاستعمار وتقويض أهدافه شيئاً فشيئاً.

كانت مبادئ الجمعية واضحة: القرآن هو كتاب الإسلام، السنة القولية والفعلية (تفسير وبيان للقرآن)، التوحيد (أساس الدين). وأما إنجازات الجمعية فكثيرة جداً ومن أهمها: إحياء المفاهيم الإسلامية وإنشاء المدارس ونشر العلم وإحياء اللغة العربية.. وظل الشيخ يعتبرها غير سياسية؛ فعندما هاجمت جريدة (الطان) الفرنسية جمعية العلماء بأنها تثير الناس.. رد عليهم: «ثم ما شأن جمعية العلماء في هذا الأمر وهي جمعية دينية تهذيبية بحتة، بعيدة كل البعد عن السياسة؟!»[1].

وقد فطن أحد الكتاب الفرنسيين لخطورة ابن باديس وجمعيته رغم إعلانه أنها غير سياسية فكتب محذراً: «هل يمكن أن نقول إن جمعية العلماء ملية (وطنية جزائرية) نعم! ولكن هذه الملية لا تظهر مباشرة؛

---

(١) الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر/ ١٨٦.

فالعلماء يحملونها في صدورهم، إن سياستهم تنحصر في المرابطة بحصن الثقافة والدين، وهكذا يتدخلون في كل شيء».

المرحلة الثالثة:

بعد قيام الجمعية وتقوية نفوذها بدأت لهجة الشيخ في معارضة فرنسا تزداد حدة، ففي سنة ١٩٣٣ كتب إلى الوالي الفرنسي متهماً إياه بالتدخل في الشؤون الدينية لمسلمي الجزائر على نحو مخالف للدين وللقانون الفرنسي، ثم يوجه الشيخ نداء إلى الأمة أن لا تتبع السياسة العتيقة.. سياسة المطالبة والانتظار تجاه دولة تخلف وعودها، ويدعو إلى سياسة المقاومة السلمية مثل مقاطعة الانتخابات، وحدد يوماً للبدء بحركة المقاومة، وقد ثار المستعمرون الفرنسيون على نداء ابن باديس فكتب يرد عليهم: «لم يسؤني ما علقتم به من عبارات الحقد والتحريش، وأريد أن أحقق لكم أن تحرشكم لا يخيف صغاراً من تلامذتنا؛ فمن باب أوْلى أن لا يكون له أدنى تأثير في كبارنا، ومن المؤسف أنكم لا تدركون تطورات الأمم وتقلبات الأيام..»[1].

في سنة ١٩٣٧م يطلب الشيخ من أهالي «قسنطينة» عدم المشاركة بالاحتفال المئوي لاحتلال مدينتهم؛ فيمتثلون لأمره جميعاً، لقد انتقل الشيخ إل مركز القيادة.. حاولت فرنسا الالتفاف على هذه المبادرات وهذه اليقظة فأصدرت قانون (بلوم – فيوليت) الذي فرحت به الأحزاب

---

(١) محمود قاسم: ابن باديس/ ٧٣.

السياسية في الجزائر والتي ترى أن أكبر مكسب لها هو الاندماج مع فرنسا والمساواة مع الفرنسيين في الحقوق السياسية، ولكن فرنسا أخلفت مواعيدها في هذه المرة أيضاً، ويكتب الشيخ: «إن فرنسا تعد وتخلف، والجزائر تخدع وتطمع، وأما نحن فقد أخذ اليأس بتلابيب كثير منا، كلا والله لا تسلمنا المماطلة إلى الضجر، وإنما يدفعنا اليأس إلى المغامرة والتضحية، وكذب رأي السياسة وساء فألها»[1]. وهذه العبارة الأخيرة تدل على ما في ذهن الشيخ وما يخطط له من محاربة الاستعمار. ويهاجم دعاة «الاندماج» مرة ثانية فيقول: «ثم إن هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا لو أرادت».

وهكذا انتقل ابن باديس في آخر حياته لمرحلة المقاومة السياسية ثم المقاومة بالقوة، ولكنه لم يدرك هذه الأخيرة.. لقد بدأ إصلاحه سهلاً ليناً، وانتهى صارماً ممتنعاً على نحو لم يفطن له المستعمر أول الأمر؛ إنه الرجل السهل الممتنع الذي بدأ ينحت في الصخر تحت خرير الماء الهادئ حتى أتى على الصخر وأزاله من طريق الأمة[2].

* * *

(١) (الميلي: ابن باديس/ ١٨٠).

(٢) (محمود قاسم: ابن باديس/ ٤٩ - ٦٤).

الحديث عن المستقبل

تمهيد:

إن الحديث عن المستقبل القريب، ومحاولة استشرافه من خلال النظرة القرآنية، ومن خلال الواقع الموجود، هذا الحديث له ما يسوِّغه؛ فالأمة الإسلامية أمة غير منقطعة، إنها موصولة بما قبلها من دعوة الأنبياء ومن تاريخها الذي يبدأ من البعثة النبوية، وهي مستمرة بإذن الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وعندما يذكر القرآن تداول الأيام فإنما يبذر في نفس المسلم إحساساً عميقاً من اليقظة التاريخية المستقبلية. ومن العبرة في قصص الأنبياء أنها إعلام بما ستراه هذه الأمة بعد عصر الرسالة، وعندما قال ورقة بن نوفل للرسول ﷺ: «ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك» فإنما كان يبني على التجربة السابقة من تاريخ الأنبياء، وقد تساءل الرسول ﷺ باستغراب: «أوَ مخرجيَّ هم»؟ قال ورقة: «نعم! ما أتى أحد بمثل ما أتيت به إلا عودي». ومن التطلعات المستقبلية ما بشر به الرسول ﷺ وأصحابه بفتح بلاد كسرى وقيصر، وكان المسلمون يومئذ في قلة وضعف ومكابدة من الأعداء، وكأن البُشْريات تأتي عندما تشتد الأزمات، وفي وقت الضعف والابتلاء.

إن ما يسمى (علم المستقبليات) ليس غريباً على الثقافة الإسلامية؛ فقد كتب ابن خلدون عن علم العمران، وتحدث عن فوائده، وذكر منها أنه (يعرفنا بما هو واقع ومنتظر) فالذي يتقن هذا العلم – كما يرى ابن خلدون – يمكن له أن يستشرف المستقبل، ويتوقع ما تأتي به الأيام. وهي على كل حال توقعات واحتمالات وإلا فمن يقينيات المسلم أن الغيب بيد الله ولا يعلمه إلا هو، ولكن المسلم يتهيأ بما عنده من توكل على الله، وما عنده من قيم ثابتة ليكون صاحب شأن وتأثير في معارك الحياة، والتطلع المستقبلي يلقي عليه مسؤولية التحرك نحو تحقيق الأهداف المطلوبة « والعبرة هي في قدرة الإنسان على رؤية النتائج الأخيرة منذ أوائل الأمور، وأما إذا انتظر المرء حتى يقع ما يقع، فيراه حين يقع، فذاك أمر يعتدل فيه الفاضل والمفضول، والعالمون والجاهلون..[1] ».

العالم من حولنا:

الحديث عن المستقبل يقتضي معرفة واقعنا وواقع الغرب الذي يفرض هيمنته العسكرية والاقتصادية والثقافية، ويريد أن يجعل من العالم الإسلامي مستهلكاً كبيراً لمنتجاته حتى الثقافية منها، وتحت الوطأة السياسية لهذا الغرب تحول العالم الإسلامي إلى فسيفساء، إلى دول صغيرة، فتعمقت الإقليميات والوطنيات الضيقة، إن مفهوم الغرب لاقتصاد السوق والمؤسسات الكبرى التي أقامها (البنك الدولي، منظمة التجارة العالمية) لا يمكن إلا أن تحوِّل العالم إلى ساحة من الذئاب السارحة. وانزلق

---

(١) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي/ ٣٥٨ والكلام للجاحظ.

العالم الإسلامي في المديونية والبطالة، ومن الناحية الثقافية زرع الغرب بعض المثقفين الذين من مهامهم تصدير الخوف والرعب للشعوب الإسلامية، وأن عليها، القبول بـ (العولمة) والانفتاح الثقافي، بل وضياع الهوية والانتماء. إن وطأة هذا الغرب لا تقف عند حدود التفوق العلمي؛ فإنه مشبع بالروح المادية التي تزعزع اليقينيات وقد أمكن لهذا الغرب أن يجرد للمسلمين والإسلام أبغض صورة ممكنة لدين من الأديان، وفي استطلاع للرأي في أمريكا حول الإسلام واليهودية والكاثوليكية كانت نسبة الذين أجابوا بأنهم يحملون فكرة إيجابية عن الكاثولوكية ٦٧٪ وعن اليهودية ٥٢٪ وعن الإسلام ٢٣٪[1].

وهذا الموقف العدائي هو الذي فسر لنا لماذا تقع أكثر الحروب في العالم على أرض العالم الإسلامي، ولماذا أكثر اللاجئين في العالم من المسلمين؟ إن المعادلة التي وضعها الغرب بأنه في طرف والإسلام في طرف آخر، هذه المعادلة وإن كانت صحيحة اليوم كصراع حضاري، فإن الإسلام هو القوة الثقافية المنافسة للحضارة الغربية، ولكن هذا يجب ألا يخدعنا عن أنفسنا، ويعطينا نوعاً من الزهو والتعويض؛ فالعالم الإسلامي بمجموعه ما يزال يئن تحت وطأة التخلف والضعف الاقتصادي والعسكري والسياسي، والغرب إنما يضع هذه المعادلة ليستنفر قواه، ولتستمر السيطرة وحماية المصالح والرفاهية التي تعوَّد عليها، هذا هو واقع الغرب اليوم. ولا أحب تضخيم قوة الغرب وهذا التحالف (البروتستنتي اليهودي) حتى لا

---

(١) هذا قبل ١١/ ٩/ ٢٠٠١م.

يحسب المسلم أن هذا التحالف قادر على كل شيء، بل هناك مؤشرات قوية على بداية الانحدار، هناك أشياء تنخر في هذا الجسم العملاق، يقول مؤلف كتاب: (مستقبل الرأسمالية الأمريكية) والذي يعتبر أهم الاقتصاديين (الكينزيين[1]) الأحياء، يقول: «هناك أيضاً القابلية المتزايدة للعطب؛ فدورة المال والأعمال تستعلي على التوجيه؛ لأن تعاظم العولمة سيضعف بالتدريج قدرة السياسات المالية للدول الوطنية؛ وعولمة كهذه قد تفاقم قابلية النظام الأمريكي للهزات الخارجية.. وإن التغيرات الديمغرافية ستؤدي إلى نسب أدنى من التوفير والتوظيف معاً..[2]».

ويقول المؤرخ (بول كنيدي) في كتابه: (قيام وسقوط الدول العظمى): «إن الولايات المتحدة بدأت في التراجع كدولة عظمى، كما تراجعت أسبانيا في القرن السادس عشر، وبريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر، وما من دولة تبتدئ في التراجع الاقتصادي إلا وتحاول أن تغطي على ضعفها بتركيز سياستها على التفوق العسكري». وإن تخوف أمريكا والغرب من الإسلام من خلال عشرات ومئات المقالات والكتب والبحوث «هذه الظاهرة مؤشر واضح على فقدان المجتمع الغربي ثقته في نفسه وإحساسه العميق بضعف ثقافته وعدم تماسك داخله. لقد بات معروفاً في الدراسات الاستراتيجية أن الشعور بالخوف واستقرار هذا الشعور هو بداية

---

(١) نسبة إلى الاقتصادي المشهور (كينز).

(٢) فردريك برايور: مستقبل الرأسمالية الأمريكية، مقال في جريدة الحياة، ١٧/ ١١/ ٢٠٠٢م.

الهزيمة وانتصار الآخر..[1]».

ولا شك أن لكل شيء نهاية، وأن نهاية الغدر ونقض المعاهدات، والغطرسة العنصرية، نهاية هذا سُمٌّ مصفى يتسرب في شرايين أوروبا.

لا نريد التحدث عن ازدياد نسبة الجرائم، ونسبة تعاطي المخدرات، وكثرة الأمراض؛ فهذه أمور معروفة، وينشر عنها الإحصائيات في كل مكان، ومع ذلك فلا يعني هذا أن الحضارة الغربية ستنهار بين ليلة وضحاها كما يتصور البعض، وخاصة في بعض المجلات الإسلامية؛ فإن هذه الحضارة رغم ماديتها وانحرافها عن منهج الله ومنهج الفطرة فإنها تملك من المقومات ما يعطيها الاستمرارية إلى الأجل الذي ذكره الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: ٣٤]؛ فالاتحاد الأوروبي سيكون مجمل سكانه (٤٠٠) مليون، وأمريكا ترتب أمور القارة الشمالية لمجابهة أوروبا.

ماذا يملك المسلمون؟

إن أعظم وأهم ما يملكه المسلمون هو هذا المنهج الذي ليس من صنعهم وإنما أنزله الله رحمة للعالمين. منهج رباني لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا ويبين للمسلم طريق الهدى، منهج حياة شامل وكامل ولا تظهر مشكلة من مشاكل الحياة إلا وللإسلام فيها رأي وحل، وباب الاجتهاد مفتوح للعلماء الراسخين؛ فهل عند أمة من الأمم التي تعيش على المعمورة

---

(١) المهدي المنجرة: القدس العربي: العدد/ ٢٣٧٣ ١٤ شعبان/ ١٤١٧هـ.

اليوم، منهج يبين لهم ما هو الصحيح في جميع شؤون حياتهم؟ يملك المسلمون أعظم ثروة من الفقه، وفقه المقاصد؛ ثروة لا تملك عشر معشارها أي أمة من الأمم؛ ثروة جعلت أحد كبار القانونيين يقول: إنني أشعر بالتلمذة كلما فتحت كتاباً من كتب القوم (الفقهاء) القدامى.

يملك المسلمون في كتابهم الكريم تلك الآيات التي تحدثهم عن سنن الله في الكون والحياة، وسننه في المجتمعات والأفراد. سنن النصر والهزيمة، سنن التمكين والتغيير، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

فهل يستفيد المسلمون من هذه السنن والاعتبار بها؟ والعلم بهذه السنن وتطبيقها على الواقع هو من أعظم العلم بكتاب الله، وربما هو الذي عناه عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عندما قال عن وفاة الخليفة العظيم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «مات تسعة أعشار العلم» «وكان عمر من أعلم الناس بطبائع الشعوب وكيف تبنى الدول وتصان، وكيف تؤدي رسالتها؟»[1].

ويملك المسلمون موقعاً جغرافياً وسطاً في العالم وأماكن استراتيجية وأراضي واسعة شاسعة (من غانة إلى فرغانة) أراضي مملوءة بالمعادن

---

(١) محمد الغزالي: سر تأخر العرب والمسلمين/ ١٤.

والأنهار، مليئة بالخيرات، أليس هذا مما يساعد على إقامة دنياهم...؟!

بعض مرتكزات المستقبل:

١ – لا يوجد مستقبل دون ماضٍ؛ والقاعدة الهندسية تؤكد أنك إذا وصلت إلى نقطة ما فمعناه أنك أتيت من نقطة أخرى. إن الماضي هو الجذور المنغرسة في حياتنا الثقافية، في المبادئ والقيم، التضحيات والبطولات والجهد العلمي العظيم. والأجيال المتتابعة لا بد أن تسترجع الماضي القريب خاصة لترى كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه، هذا الماضي القريب كثير منه مُزوّر في كتبنا لمصلحة من لا يريد أن تطّلع الأجيال الجديدة على الصواب والخطأ في حياتنا، وليكون ذلك استدراكاً للحاضر.

٢ – الاهتمام بالجانب العملي، الجانب الأخلاقي، هذان الجانبان اللذان جفَّا ونضبا ونحن مشغولون بالتنظير، وتشقيق الكلام. لقد استشرت الأنانية، والانتهازية وأصبحت الخصوصيات الوطنية ثقافة للإنسان المعادي.

بل نستطيع القول إن هناك عطباً كبيراً في (الفعل)، وليس صحيحاً أن المشكلة كلها في نقص (المعرفة) أو أسلمة المعرفة. وإنه يتعذر أن نبني بناء كبيراً ونحن في هذا الوضع المتردي من النفاق الاجتماعي، والحداثة المادية التي جففت الروح وأنضبت المشاعر، إن بناء العلائق العاطفية هو أحد المفاتيح لكسر حواجز اليأس.

٣ – التركيز على إقامة المؤسسات العلمية والإعلامية؛ فخطر المحطات الفضائية المعادية لا يمتد إلى الناحية الأخلاقية فحسب، بل يصيب المبادئ والاعتقاد، ولا يقف أمامها إلا المؤسسات المتخصصة ذات الكفاءة العالية.

٤ – يقول أحد علماء الاتصالات: «إن العصر الصناعي استغرق مئتي سنة وقد انتهى عام ١٩٧٠م، ليبدأ عصر الكمبيوتر، وأما عصر (الإنترنت) فهو مازال في بدايته» إن على المسلمين أن يتهيؤوا لهذا العصر؛ حيث أصبحت للمعلومات قيمة كبيرة، والأدمغة المفكرة هي الرأسمال الحقيقي.

٥ – إذا كان الإسلام سيصبح قوة (جيوسياسية) كما يقول الرئيس الأمريكي الأسبق (نيكسون) فيجب ألا يخيفنا المنهزمون الذين يسوِّقون العولمة الاقتصادية والثقافية، ويسوِّقون الرعب والهلع. إن سنة التدافع تأبى هيمنة (القطب الواحد) والعالم الإسلامي عالم واسع ممرع فيه ثروات وخيرات، ويتوزع فيه أماكن استراتيجية من العالم، ويشكل كتلة كبيرة اقتصادية وثقافية وسياسية.

٦ – إن التطلع إلى المستقبل يتطلب حداً أدنى من الثقة بالنفس حتى لا نبقى في موقع المتشنج الخائف، لا بد أن نثق بوعد الله، ولو قصرت الآمال ما تجاوز الإنسان حاجة يومه. وما يجري من التحولات التي تجثم على صدورنا لا يعني أن نستسلم ونسلِّم بغرق المركب، بل علينا أن نبحث عن البدائل التي تمهد لنا ما نهدف إليه.

هل علينا أن نتفاءل؟

المسلم لا يكون متشائماً أبداً ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. **ومما يدعو للتفاؤل:**

١ – الإسلام يتقدم دائماً، بل كلما حورب ازداد قوة ونماءً.

٢ – هناك مراجعات لأخطاء الماضي، وتأمل للواقع السابق، تولدت عنها القناعات بضرورة التجديد في الوسائل.

ويبدو أننا باتجاه إيجاد بديل إسلامي يجمع ما بين التأصيل الشرعي وفقه المقاصد، وإقامة المؤسسات.

٣ – إن جماهير الأمة الإسلامية بعد أن عانت من الأحزاب والأفكار الغريبة عن حسها وعن عقيدتها، أصبحت مقتنعة أن الشرفاء الأحرار من المسلمين هم الذين يستحقون أن يديروا البلاد. وهذا ما ظهر أخيراً في انتخابات بعض البلدان العربية والإسلامية.

٤ – صمود العالم الإسلامي رغم الهجمات الماكرة المتوالية – وخاصة الفكرية – التي ما فتئت تتكرر من قرنين وأكثر.

* * *

تقدير العظماء

في عصر قلَّ فيه القادة الكبار، وقلَّ فيه الأبطال، ما أحوجنا للعيش مع ذكراهم، لعلَّ ذلك مما ينعش الآمال، ويحفز النفوس؛ فالعظماء هم القلائل الذين لا يعوَّضون غالباً، وهم الذين يتميزون بقدرات عالية موجهة لصالح الأمة ولصالح حضارة هذه الأمة؛ إنهم الذين يتخلون عن مصالحهم الشخصية وأنانيتهم الفردية في سبيل مصلحة الكل، وإن من نعم الله على الإنسان أن وهبه ذاكرة تحفظ الماضي والتاريخ، فنعيش مع هؤلاء المصلحين والقادة، وإن من حقهم علينا أن نحي سيرتهم، ونجدد ذكراهم خاصة إذا علمنا أن كثيراً من أبناء الجيل الحاضر يجهلون تاريخهم القريب مع شدة الحاجة إليه.

لا نريد من التاريخ أن يكون حديثاً للافتخار والامتلاء بالعظمة الفارغة، بل نريده: «أثواباً تُلقى على الميت فتنشره مرة أخرى، حديثاً يُؤثر، وخبراً يُروى، وعملاً يُتمثل، وكأن قد كان بعد إذ لم يكن» ونريده «إيجاد حياة قد خرجت من الحياة، ورد ميت من قبر مغلق إلى كتاب مفتوح، وضم متفرق يتبعثر على الألسنة حتى يتمثل صورة تلوح للمتأمل[1]».

---

(١) محمود محمد شاكر في تقديمه لكتاب (حياة الرافعي) / ٤ - ٥.

إن كثيراً من المسلمين يجهلون سيرة بطل من أبطال الإسلام في هذا العصر، بل هو بطل العصر الحاضر بين جميع الأمم، إنه الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي قاد جهاد أهل الريف المغربي ضد دولتين استعماريتين: أسبانيا وفرنسا، وفي عصر لم تتعود فيه أوروبا أن تجد أمة إسلامية غالبة، قهر محمد بن عبدالكريم جيشاً كبيراً لاسبانيا، ولم يكن معه إلا قلة قليلة من الرجال، حوالي (٤٠٠) مقاتل، وفي منطقة (أنوال) وعلى مدى ستة أيام كان الجيش الأسباني يصاب بالهزائم، وكان الخطابي يقاتل مع هذه القلة ويبث فيهم الشجاعة والأمل ويقول: سنهزمهم إن شاء الله؛ لأنهم على الباطل. جيش كامل من الأسبان (١٨٠٠٠) بين جندي وقائد يتمزق باستثناء (٨٥٠) سيقوا أسرى، إنه شيء لا يصدق، ولكنه الواقع الذي سجله التاريخ دون رتوش أو زيادة.

يصف الصحفي الأمريكي (فانسنت شين) هذا الزعيم وقد قابله في أحد الخنادق مدافعاً عن عاصمته (أجدير) ضد الغزو الفرنسي – الأسباني، يقول: « وصلت وسط عجيج من الغارات الجوية التي تقوم بها طائرات فرنسا وأسبانيا، دخلت على عبد الكريم في خندق بالخط الأمامي، إن روعة شجاعته لا حَدَّ لها، إيمانه بعقيدته لم يتغير، على الرغم من الأخطار المحدقة به، إن هالات السمو والجلال تحيط به، وتزداد عظمته مع ظروف الرعب والخطر الذي يحدق به، إنه لا يزال مرحاً باسماً، ليتني كنت أستطيع البقاء معه مدة أطول هنا لأزداد تأملاً وتفكيراً، ولأتعمق في

دراسة هذه الظاهرة البشرية الفريدة أمامي..[1]».

ويصف مراسل جريدة (الجورنال) الفرنسية عاصمة ابن عبد الكريم وحياته ومسكنه: «إن عاصمة الريف المستقلة (أجدير) عبارة عن قرية صيادي سمك، فيها مساكن عبد الكريم وأعوانه وكلها أبنية بسيطة، ليس فيها شيء من تطاول البنيان، وحيطانها مجيَّرة بالكلس البسيط دون زخرفة أو نقش..[2]».

لم يصل أهل الريف إلى هذا المستوى إلا بعد أن أخذ عليهم الخطابي عهداً، أن يتركوا العادات الجاهلية، وبعد أن شرح لهم الدين الإسلامي بأسلوب مبسط وبطريقة الإقناع، فتوحدت صفوفهم وانصاعوا لأمر الشرع، وبعد كل هذا قال لهم: سيبقى عملنا ناقصاً إذا انعدمت الحرية، وحريتنا يهددها الغزو الأجنبي.

تحالفت فرنسا واسبانيا على ابن عبد الكريم، وحاصروا (أجدير) براً وبحراً وضربوها بالغازات السامة، واضطر البطل إلى التسليم، وكانت آخر وصية لأعوانه: تمسكوا بإيمانكم بالله، ولا أمان للمستعمرين، ونُفي الخطابي إلى جزيرة في المحيط الهندي، وكتبت جريدة (الديلي إكسبرس): «لقد نفي عبد الكريم، وسيطول الزمن حتى يأتي زعيم آخر أو زعماء آخرون يزدرون بدولتين أوربيتين..».

---

(١) محمد أمزيان: عبد الكريم وحرب الريف/ ٢٢٢.

(٢) شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي ٣/ ٢٠٠.

كان انتصار ابن عبد الكريم مزعجاً للغرب. يقول المارشال الفرنسي (ليوتي): «أي انتصار على الغرب يعني قيام إمبراطورية إسلامية على شاطئ البحر المتوسط، وهذا يعني فتحاً إسلامياً لأوروبا من جديد، وهو أمر لا يمكن التسليم به».

هذا نموذج من تاريخنا القريب، ولكن أليس من المحزن أنك لو سألت أناساً من هذا الجيل عن هذا البطل لحاروا جواباً، وليس عندهم أي فكرة عنه، وأعرف شباباً يعتبرون أنفسهم من الطبقة المثقفة، وسألتهم عن أديب العربية الأكبر محمود محمد شاكر - رحمه الله - فلم يعرفوه ولا سمعوا به.

إن من أعظم النكبات التي تُصاب بها الأمم أن تنسى وتهمل عظماءها ورجال الإصلاح فيها؛ فكيف إذا كلما نبغ نابغة عرقلت هذه الأمة خطواته، وأضاعت مجهوداته، ودبَّ له عقارب الحسد من أبناء جنسه، ونحن لا نتهم الأمة في كل العصور ولا مجموع الأمة وليس هذا من طبعها، ولكن أليس معيباً أن تصل حال العالم المؤرخ الأديب محمود شكري الآلوسي (١٨٥٦ - ١٩٢٤) من الحاجة للمال إلى ما وصفه معاصره (أنستاس الكرملي) حيث يقول: «فلما عرف ذلك المعتمد السامي البريطاني (برسي كوكس) أهداه ثلاث مئة دينار، وكلفني بتقديمها إليه، فلما أتيته بها رفض قبولها بتاتاً، وقال: خير لي أن أموت جوعاً من أن آخذ مالاً لم أتعب في كسبه، فألححت عليه إلحاحاً مملاً مزعجاً، فأبى وقال: لا تكثر، لئلا أطردك من بيتي طرداً لا عودة إليه..»

ويتابع الكرملي: «وطلب إليّ بعض الأصدقاء أن أجد له منصباً يثري منه، وتمكنت من أن يُعين قاضي قضاة المسلمين في العراق، فلما وقف على تنصيبه أبى وقال لي: إن هذا المقام يستلزم علماً زاخراً، وذمة لا غبار عليها، ووقوفاً تاماً على الفقه، وأنا لا أشعر بذلك، ووجداني يحكم عليَّ بأني غير متصف بالصفات المطلوبة[1]».

وهذا الشيخ رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) م صاحب مجلة (المنار) ومؤسسها، والذي يعتبر من العلماء القلائل في هذا العصر الذي يجمع بين الرواية والدراية، وبين المنقول والمعقول، وبالرغم من مركزه الديني والسياسي يكتب إلى صديقه شكيب أرسلان: «لقد صرت أكره وأستثقل أن أزعجك بأخبار عسرتي في كل كتاب، حتى إن عمال المطبعة تركوا العمل في هذين الأسبوعين، وصرت أفكر في إبطال إصدار المنار، وإن ذكر هذه الكلمة أثقل على نفسي من الجبل إذا انقضَّ عليَّ».

ويكتب شكيب أرسلان: «فتأملوا يا أولي الألباب في حال هذا الرجل الذي خدم الإسلام تلك الخدمة الجُلَّى التي قلما وفق إليها أحد في العالم الإسلامي، بعد أربعين سنة من جهاده المتواصل، كان بيته مرهوناً، وكان في ضنك شديد، لا سيما أنه كان مبسوط اليد معتاداً من صغره الإنفاق وإكرام الضيف، تأملوا في بهتان أولئك الذين كانوا يتقولون عليه أنواع الأقاويل، ويتهمونه بقبض الأموال، وهذا في الغالب عند أبناء هذه الأمة

---

(١) نقولا زيادة: أعلام عرب محدثون/ ١٦٧.

جزاء العاملين . .[1] » .

ونحن نقول : ليس هو الغالب، ولكنها ثقافة الانحطاط الحضاري وثقافة الأنانية، وتدهور الحس الأخلاقي والعلمي، بينما نجد أمماً أخرى إذا نبغ فيها الرجل ذكروه وشجعوه، بل ربما رفعوه فوق قدره، وذلك لمعرفتهم حاجة الإنسان إلى مثال يُحتذى وقدوة يقتدى بها .

* * *

(١) شكيب أرسلان : السيد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة / ٦٣٢ .

الفهرس

- المقدمة ٣
- جذور النهضة في العصر الحديث ٧
- مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي ١٧
- مفهوم الصراع في القرآن الكريم، وفي الثقافة الغربية ٢٧
- العرب والسياسة ٣٧
- عسكرة الدولة، محمد علي باشا (نموذجاً) ٥١
- الإمام الجويني، وكتابه غياث الأمم ٥٩
- الواقع والسياسة في فكر الندوي ٧٥
- الفاعلية وعوامل تنميتها، كيف نعيد للمسلم فاعليته؟ ٨٥
- فقه المرحلية عند عبد الحميد بن باديس ٩٧
- الحديث عن المستقبل ١٠٩
- تقدير العظماء ١١٩

كتب للمؤلف

- مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم (بالاشتراك) .
- الصوفية : نشأتها وتطورها (بالاشتراك) .
- المعتزلة بين القديم والحديث (بالاشتراك) .
- حركة النفس الذكية .
- أيعيد التاريخ نفسه؟ (دراسة لواقع المسلمين قبل صلاح الدين) .
- البداوة والحضارة (تعليق على نصوص من مقدمة ابن خلدون) .
- التعصب الأوروبي، أم التعصب الإسلامي؟ (تعليق على كتاب مائة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية) .
- الطريق إلى المدينة (دروس من السنة النبوية) .
- خواطر في الدعوة .
- تأملات في الفكر والدعوة .
- وذكرهم بأيام الله .